الدكتور
زكريا إبراهيم



سيكولوجية المرأة

مكتبة مصر

سيكولوجية المرأة





مقدمة

قضية المرأة قضية قديمة قدم الفكر البشرى نفسه : فان الانسان منذ خلق ولوع بالتمييز والمفاضلة ، حريص على تعرف أوجه الخلاف والمماثلة ؛ وهو قد وجد فى « الذكورة » و « الأنوثة » ثنائية جديدة يضيفها الى قائمة ثنائياته المعهودة ، فقال مع فيثاغورس « ان هناك مبدأ خيرا خلق النظام ، والنور ، والرجل ؛ ومبدأ شريرا خلق الاضطراب ، والظلام ، والمرأة » ! وهكذا وجد الانسان موضعا للتفرقة بين الرجل والمرأة ، فخلق لنفسه من ذلك مشكلة ؛ وكان الرجل هو المسيطر ، فتلبست المشكلة بالمرأة ، ومن ثم نشأت تلك القضية الخالدة : « قضية المرأة » لا الرجل !

وظن الرجل فى نفسه أنه « المعيار » فأصبحت « الرجولة » فى نظره هى « القاعدة » السوية ، وصارت « الأنوثة » عنده مرادفة لظاهرة « غير طبيعية » ؛ وكأن « الرجل » وحده هو مقياس لجميع الأشياء ! ولعل هذا هو السبب فى أن كلمة «الفضيلة» — فى معظم اللغات الأوروبية المشتقة من اللاتينية — اشتقت من كلمة « الرجولة » ، كما أن كلمة « الرجل » — فى بعض هذه اللغات — قد أصبحت مرادفة لكلمة «الانسان» !

وأما « المرأة » فقد ظلت هى « الموجود الآخر » أو « الجنس الثانى » الذى كتب عليه أبد الدهر أن يبقى مغلفا بالأساطير والتهاويل والخرافات ! وارتبطت فى أذهان الكثيرين ــ خصوصا فى بلاد الشرق ــ كلمة « المرأة » بكلمة « الحريم » ، فأصبحت أنثى الانسان ــ دون غيرها من اناث « المملكة الحيوانية » ــ سرا منيعا تتضارب حوله الأقوال ، ولغزا صعبا تحاك حوله الأقاصيص والأمثال ، دون أن يقوى أحد على اماطة اللثام عما أحاط به من سحر وشعر وخيال !

ثم جاء علماء النفس بنظرياتهم فى الليبيدو وعقدة أوديب وعقدة الخصاء وعقدة النقص وعقدة الذكورة ، فلم يكن من شأن « عقدهم » هذه سوى أن تزيد المشكلة تعقيدا على تعقيد ، حتى لقد أصبح « الرجل » يفسر كل سلوك المرأة بأنه وليد شعورها بالنقص ، ورغبتها الحادة فى « تقليد » الرجل! وهكذا أصبحت كلمة « المرأة » علما على ذلك « المخلوق الغريب » الذى لا سبيل الى فهمه أو فض أسراره ، وصارت « الأنثى الخالدة » مفهوما مطلقا مجردا يلتجىء اليه الرجل كلما عز عليه تفسير سلوك واحدة من بنات حواء ! أما الأدباء ورجال القلم فقد وجدوا فى عبارة « فتش عن المرأة » مفتاحا سحريا أرادوا به أن يحلوا كل مشاكل المجتمع الناشبة عن الصراع بين الجنسين ، وكأن لهذه العبارة من السحر ماتستطيع معه أن تمحو المشكلة نفسها بجرة قلم ! ثم أثيرت المناقشات حول المفاضلة بين الرجل والمرأة ، أو المساواة بينهما ، فلم يكن من شأن كل تلك المناقشات

العقيمة سوى أن تزيد القضية تعقدا وتشابكا : اذ أصبحت المرأة تقف وجها لوجه أمام الرجل ، تناضله وتذود عن نفسها ، كأنما هى بازاء خصم عنيد جائر !

ومن هنا فقد انتهى الأمر بالمرأة الى الشك فى قدرة الرجل على فهم نفسيتها ، حتى لقد قالت أخيرا احدى الكاتبات فى مقدمة كتاب ضخم لها عن المرأة : « ان كل ما كتبه الرجال عن النساء مرفوض مردود ، لأن الرجل قد نصب نفسه خصما وحكما فى وقت واحد » ! ألم يقل بلزاك ــ فى كتابه « فسيولوجية الزواج » ــ موجها الحديث الى الرجال ــ : « لا تأبهوا بأنات النساء وصرخاتهن وآلامهن : فان الطبيعة نفسها هى التى وضعت المرأة تحت تصرف الرجل ، وهى التى أرادتها على أن تنوء بالأطفال والأشجان ، وأن تتحمل ضربات الرجل وشروره ! لا تتهموا أنفسكم بالقسوة أو الصلابة : ففى كل قوانين الأمم التى نعدها متحضرة ، كان الرجل هو الذى يضع الشرائع المحددة لمصير النساء ، مستندا فى ذلك الى العبارة الحاسمة : « الويل للضعفاء ! الويل للمهزومين ! » ؟ ألم يقل نيتشه ــ فى معرض حديثه عن المرأة على لسان نبيه زرادشت : « ان الرجل ليجب أن ينشأ للحرب والقتال ؛ أما المرأة فيجب أن تعد للترويح عن المحاربين ؛ وكل ما عدا ذلك فهو حمق وضلال » ! ؟ فكيف ترتضى المرأة اذن حكم الرجل ، وهى تعلم أنه قد نسب لنفسه فى كل زمان ومكان ، لا الأولوية والسبق فحسب ، بل السيادة

المطلقة والامتياز التام ؟ أجل ان التوراة قد قالت بأن الله خلق آدم أولا ، ثم خلق حواء من ضلعه بعد ذلك ؛ ولكن الرجل لم يقنع بهذه الأولوية ، بل هو قد أراد أن يجعل من نفسه خالقا للمرأة نفسها ، فقال على لسان نيتشه : « ان الرجل هو الذى خلق المرأة ؛ وهو قد خلقها من ضلع الهه ، أعنى ببضعة من مثله الأعلى ! »

وليس بدعا أن يظن الرجل فى نفسه أنه هو الذى خلق المرأة : فان الرجال بالفعل قد خلقوا صورة « الأنثى الخالدة » ؛ خلقوها بأوهامهم وأحلامهم وآلامهم وآمالهم ! وسواء أكانت المرأة فى نظر الرجل سحرا أم سرا ، غانية أم ملكا ، غاوية أم مرشدة ، مسيئة أم ملهمة ، شيطانا خبيثا أم الهة راعية ، فانها فى كل هذه الحالات لابد من أن تتخذ فى نظره صورة « الموجود الآخر » الذى تمتزج فيه الحياة بالموت ، وتختلط فيه الطبيعة بالصناعة ، ويتعانق عنده النور والظلام ! ولعل هذا هو السر فى أن «المرأة» قد بقيت فى نظر الرجل لغزا عسيرا لاسبيل الى فهمه أو تبديد ما أحاط به من غموض !

* * *

أما بعد ، فاننا لم نقدم على كتابة هذا المؤلف لحل مشكلة ظلت حتى الآن مستعصية على الحل ، بل انما أردنا أن نحاول وضع المشكلة وضعا صحيحا ، حتى يكون فى دراستنا لسيكولوجية المرأة ما قد يعيننا على فهم ذلك « اللغز الأبدى »

الذى طالما تفنن الرجل فى تعقيده ! ولسنا نزعم أننا قد استطعنا أن نميط اللثــام عما أحاط بذلك « اللغز » من غموض وشعر وخيال ، ولكننا نظن أن القارىء قد يجد فى تضاعيف دراستنا للتطور النفسى الذى يختلف على المرأة خلال مراحل نموها ، ما قد يعينه على تكوين صورة صحيحة لذلك « المخلوق الغريب » الذى كثيرا مانضفى عليه صفات السر والسحر ! وسيجد القارىء فى ختام هذا البحث أن كلمات « الذكورة » و « الأنوثة » قد أخذت تفقد طابعها المطلق الأجوف ، وأن تلك الثنائية الحاسمة التى اعتدنا أن نقيمها بين « الرجــل » و « المرأة » قد أخذت تتضاءل شيئا فشيئا ، حتى ليكاد لفظ « الانسان » وحده هو الذى يطغى على كل اعتبار آخر . ولكننا نبادر فننبه القارىء الى أننــا لا نريد بذلك أن نقضى على الفوارق بين الجنسين ــ فتلك سنة الطبيعة ولسنا نملك حيالها شيئا ــ وانما نحن نريد أن نقضى على تلك المفهومات المجردة التى اعتاد الانسان أن يلتجىء اليها فى تفسيره لسلوك المرأة ، حتى لاتظل « الأنوثة » فى نظرنا مرتبطة بمعانى السلبية المطلقة ، والضعف التام ، والقصور بوجه عام . ونحن نرجو فى الختام أن نكون قد أصبنا حظا من النجاح فى هذا السبيل ، ونأمل ألا يكون قد خاننا الحظ فى الكشف عن بعض الجوانب الغامضة من شخصية المرأة .

الفصل الأول

الفروق البيولوجية بين الجنسين

---

١ ــ ليس أيسر من أن يقال ان الرجل هو « القضيب » والمرأة هى « الرحم » ، أو أن يعرف الرجل بأنه « الحيوان المنوى » والمرأة بأنها « البويضة » ، كما فعل ألفريد فوييه (A. Fouilleé) ــ مثلا ــ فى كتابه الموسوم باسم « المزاج والخلق » : « Le Tempérament et Le Caractère » ولكن هل يكفى اختلاف عضو التناسل لدى الرجل والمرأة لفهم نفسية كل منهما وتفسير شتى مظاهر سلوكهما ؟ أو هل تصلح الفروق البيولوچية القائمة بين الجنسين أساسا نستند اليه فى وضع فروق سيكولوچية حاسمة بين الواحد منهما والآخر ؟ ــ تلك هى المشكلة الأولى التى لا بد لنا من أن تتعرض لدراستها بادىء ذى بدء ، حتى نستطيع أن نعرف على وجه الدقة الى آى حد تتحكم العناصر البيولوچية فى مصير المرأة .

وهنا نجد أن علم النفس الفسيولوچى هو الكفيل باظهارنا على العلاقة الوثيقة التى تربط سلوك الفرد بمظاهر نموه البيولوچى ،

وحالة نشاطه الهرمونى ؛ حتى لقد ذهب بعض العلماء الى أن « المعادلة النفسية » للفرد ترتد فى نهـاية الأمر الى « معادلته الغددية » . وليس من شك فى أن الصلة قوية بين « الغـريزة الجنسية » (ان صح هذا التعبير) والهرمونات التناسلية ، كما أظهرتنا على ذلك تلك التجارب العديدة التى أجريت على الحيوان ، وكما تبين لنا بوضـوح من النتائج المختلفة التى توصلت اليها دراسات الپاثولوجيا (أى علم الأمراض) فى المجال البشرى . ونحن نعرف أن فترة النهيج الجنسى لدى الحيوانات ، انما تحدث عادة أثناء الربيع . فيكون لدى الحيوان ميل الى المباضعة ونزوع واضـح نحو السـفاد[1] . ولكننا لو اسـتأصلنا مثلا خصيتى الضـفدع ، فان هذا الاسـتعداد الجنسى لا يلبث أن يختفى ، فتختفى معه الغريزة التناسلية ، ويصبح الذكر فى حالة عـدم اكتراث تام بالنسـبة الى الأنثى . فاذا ما حقنـا هذا الضفدع المخصى بخـلاصة الخصيتين (سواء أكانت مستمدة من أحـد الطيور أم من حيوان ثديى أم من أى نوع من أنواع الزواحف) فان الرغبة التناسلية لا تلبث أن تعود الى الظهـور لدى ذلك الضفدع ، وبالتالى فان نزوعه الى الجماع سرعان ما يأخذ مجراه الطبيعى . وقد أثبت العالم البيولوجى اشتيناخ (Steinach) (فى تجارب مشهورة قد أصبحت اليوم كلاسـيكية) أن مخ الذكر ونخاعه الشوكى ينطويان أثناء الربيع على «مبدأ شبقى»[2]

---

(١) « السـفاد » فى اللغة العربية هو النكاح أو الوطء بالنسبة الى الحيوانات .
(٢) (Principe érotisant)

بحيث اننا لو حقنا أى ذكر مخصى بخلاصة تلك الأعضاء تحت الجلد ، لترتب على ذلك ظهور الغريزة الجنسية من جديد لديه ، وكأن الغدة التناسلية قد أنتجت فى فصل التهيج الجنسى هرمونا يشيع فى الجهاز العصبى كله النزوع الى المباضعة !

وهناك تجارب أخرى مشهورة قام باجرائها على فصيلة الفراخ (Gallinacés) العالم الفرنسى پيزار (Pézard) ، فاستطاع بواسطتها أن يظهرنا على أن الديك يختلف عن الدجاجة من حيث لون الريش ، ونمو الزوائد المخلبية ، ونمو العرف ، والصياح الرنان ، والحسية الجنسية ، والنزوع الغريزى نحو المقاتلة . فاذا ما استأصلنا الخصيتين من الديك ، طرأ عليه تحول واضح تبدو مظاهره فى كل من الناحيتين الجسمية والنفسية : اذ لا يلبث صياحه الرنان أن ينقطع ، كما لايلبث عرفه أن يضمر ، فضلا عن أن نزوعه الى المقاتلة سرعان مايختفى ، وغريزته التناسلية سرعان ما تضعف ، بل قد تحل محلها غريزة الأنثى بخصائصها المعروفة . بيد أن الملاحظ فى مثل هذه الأحوال أن لون الريش لا يتغير ، كما أن الزوائد المخلبية قد تستمر فى النمو كالمعتاد ، فى حالة ما اذا كانت العملية قد أجريت على حيوان صغير السن . وأما اذا أجرينا هذه العملية نفسها على الدجاجة ، فان ريشها لايلبث أن يتساقط ، لكى ينمو مكانه ريش ملون زاه (من نوع ريش الذكر) ، كما أن عرفها ومخالبها لاتلبث أن تأخذ فى النمو ، حتى أن الديك الذى استأصلنا خصيتيه ، والدجاجة التى استأصلنا مبيضيها ، ليصبحان أشبه ما يكون كل منهما بالآخر ! أما اذا

عدنا فحقنا ذلك الحيوان الذى استأصلنا غدده التناسلية بخلاصة تلك الغدد أو اذا ما طعمناه بغدد أخرى جديدة ، فاننا نلاحظ أن مظهره الأصلى لا يلبث أن يعود الى الظهور . وهكذا يعود العرف الى النمو ، لكى يعقبه ظهور الصياح الرنان ، ومظاهر النشاط الجنسى ، والنزوع الغريزى نحو المقاتلة . بل اننا لو استأصلنا مبيضى الدجاجة ، ثم عدنا فحقناها أوطعمناها بخصيتى ديك ، فانها لا تلبث أن تصبح كالديك ، كما أنها سرعان ما تكتسب معظم خصائص الذكر ، مثل النزوع الى المقاتلة ، والحمية الجنسية . . . الخ [1] .

أما فيما يتعلق بالآثار النفسية التى تترتب على استئصال الغدد التناسلية لدى الحيوانات الثديية بصفة عامة ، ولدى المستأنس منها بصفة خاصة ، فان خير مثال لها ذلك الفارق الكبير الذى نشاهده بين سلوك الثور المخصى وسلوك الثور الطليق . ونحن نعرف أن نتائج التجارب التى أجريت على الحيوان ، تنطبق الى حد كبير على الانسان ، كما تدلنا على ذلك آثار الاخصاء (Castration) لدى الرجل ، حينما تجرى عليه هذه العملية فى مرحلة سابقة على دور المراهقة . فالغريزة التناسلية لا تظهر لدى الخصى ، والخصائص الجنسية الثانوية من مورفولوچية وسيكولوچية لا تجد عنده مجالا للظهور ، وهذا هو السبب فى أن للخصى (L'eunuque) « معادلة سيكو ــ فسيولوچية »

---

(1) Cf. Dr. Jean Delay · "La Psycho — Phsiologie Humaine" P. U. F. 1945, P. 50 — 52.

خاصه ، تختلف اختلافا كبيرا عن « معادلة » الرجـل العادى السوى .

٢ ــ وقد أدت نتائج الخصاء عند الذكور والاناث بالعلامة مارانون (Maranon) الى القول بأن الكائنات كانت فى البدء ذات جنس مزدوج ، ثم لم تلبث أن خضعت لضرب من التطور فانتقلت من « الطراز المؤنث » الى « الطراز المذكر » . ومعنى هذا أن المرأة هى الأصل الذى اشتق منه الذكر ، فهى «الصورة الأولى » للنـوع البشرى ؛ وأما الرجـل فانه « الصـورة الثانية » التى تفرعت عن ذلك الأصل . واذا صحت هذه النظرية فان الذكر لن يكون سوى « أنثى متفاضلة » ، بمعنى أنه ينطوى فى أثنائه على « أنثى كامنة » هى الجنس الأصلى الذى صدرت عنه كل الثدييات . وهذه الأنثى الكامنة هى بطبيعة الحال على استعداد دائم لأن تظهر بشكل واضح ، حينما تستأصل تلك الغدد الزائدة التى تعوق ظهورها . واذن فان الفروق الجنسية بين الذكر والأنثى ليست فروقا جوهرية أصلية ، بل هى فروق فرعية مستجدة . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقـول ان للتركيب الجنسى لأفراد كل فصـيلة ، أساسا مشتركا يحتمـل التذكير والتأنيث ، وهـذا ما عبر عنه مارانون بنظريته فى « الامكانية الجنسية المتعادلة » (Équipotentialité Sexuelle)[1] .

حقا ان لكل من الذكر والأنثى هرمونات خاصة ، وخصائص بيولوچيـة محددة ؛ ولكن ربما كان من الخطأ أن نعـدهما بمثابة

(١) ارجع الى الترجمة الانجليزية لكتاب العالم الاسبانى مارانون الموسوم باسم « تطور الجنس » (الفصل الثانى) .

وحدتين مستقلتين تقوم كل منهما بذاتها ، بينما هما فى حقيقة الأمر حالتان متماستان ، قد يبلغ بهما التقارب أن ينــدمجا معا ليكونا حالةمختلطة هى مايعرف بالخنثى Hermaphrodite وهكذا نجد أن كثيرا من علماء الجنس يرفضون التحــدث عن « نوع مذكر » و « نوع مؤنث » ، لأنهم يعلمون أن ليس ثمة سوى سلسلة طويلة من الحالات الجنسية التى تمتد ابتداء من «الخنثى» حتى تلك الأشكال المعتدلة التى تكاد تكون ســوية طبيعية . وربما كان من بعض مزايا هذه النظرة الجديدة الى « الجنس » أنها تساعدنا على فهم الكثير من الحالات الجنسية التى طالما نظر اليها الناس على أنها « انحرافات غريبة » أو حالات شاذة ، مثل حالة « التخنث » وحالة « الجنسية المثلية » (Homosexualité) هذا الى أننا نعلم من دراستنا للكثير من الحالات النفسية عموما أن الخلاف بين ماهو سوى (Normal) وماهو مرضى (Pathologigue) انما هو مجرد خلاف كمى . وقد دلتنا التجارب فى مجال الفروق الجنسية على أنه ليس من الصحيح أن ثمة « رجولة خالصة » أو « أنوثة خالصة » . واذا لم يكن فى استطاعة أحد اليوم أن يفخر بأنه « رجل » تام الرجولة ، فبأى حق نحكم بالغرابة أو الشذوذ على قوم بلغت درجة « الرجــولة » عندهم حدا أدنى بقليل مما يوجد لدينا ؟ ان كل ماهنالك هو أن هؤلاء القوم قد أخــذوا من « الجنس الآخر » بقسط أوفر مما أخذنا ، فلذلك ظهرت لديهم حالة « الاختلاط » بشكل أظهر وأوضح . ولكن مهما كان حظنا من « الذكورة » ، فان من المؤكد أننا نحمل فى

ثانيا تكويننا الجسمانى والنفسى قسطا قل أو كبر من « الأنوثة » ! وقد دلتنا التجارب على أن التمييز التام بين الجنسين قد يكون ضربا من المستحيل . وهذا ما عبر عنه بيدل (Biedel) بقوله ان الرجل الخالص ، والمرأة الخالصة ، هما حالتان قلما يلتقى بهما المرء فى الظروف العادية .

واذن فان كل ما يميزنا عن أولئك الذين قد نعدهم شاذين منحرفين ، انما هو زيادة حظنا من الافرازات الهرمونية الخاصة بالذكر . وقد كنا جميعا فى البداية متفقين فى الاتصاف بنزعة « جنسية مثلية » كامنة ، ثم توقف النمو الجنسى عند البعض منا فبقى على حاله ، بينما استمر الافراز الهرمونى عند البعض الآخر فانتقل الى مرحلة أخرى . واذا كنا لحسن الحظ قد انتقلنا الى مرحلة النضج الجنسى ، وأصبحنا أميز من حيث « الذكورة » ، فذلك لأن هرمونات الذكر قد تغلبت فينا على هرمونات الأنثى! وانه لمن المعروف بيولوجيا أن الاناث والذكور يفرزون هرمونات مختلطة ، بنسب وكميات متفاوتة . فهل يكون معنى هذا أن الرجل هو « التستسترون » (testostérone) (هرمون الذكر) وأن المرأة هى الفوليكولين (Folliculine) (هرمون الأنثى) ؟ أو هل تكون مشكلة الفروق الجنسية مجرد مشكلة كيماوية هرمونية ؟ ان بعض علماء الفسيولوجيا ليذهبون الى أن كل مظاهر الانحراف أو النقص فى الغريزة الجنسية ــ سواء عند المرأة أم عند الرجل ــ انما ترتد فى نهاية الأمر الى مجرد نقص أو اختلال فى التوازن الهرمونى ؛ فهل نقول ان الفارق بين الرجل

والمرأة ، انما هو مجرد فارق كيماوى تتكفل بتفسيره بيولوجيا الغدد الصماء ؟

٣ ــ هنا نجد أنه قد يكون من الخطأ أن نظن بأن للوظيفة التناسلية عند الانسان تلك البساطة الدورية التى نجدها لدى بعض الحيوانات (كما هو الحال مثلا لدى الحيوانات البرمائية أو عند فصيلة الفراخ) ؛ بل كما أن اللعاب ليس هو الشهية ، فان هرمون الذكر ليس هو الرجولة ! والحق أن المنهج الباثولوچى قد أدى لنا خدمة جليلة ، لأنه هو الذى سمح لنا هنا بأن نقف على البناء الحقيقى الذى تقوم عليه كل الوظائف النفسية لدى الانسان . وهكذا أصبح فى وسعنا أن نقول ان كل وظيفة سيكولوچية هى عبارة عن « نظام طبقى » من البنايات (Hiérarchie de structures) ، وهذا القانون يصدق على كل وظائفنا الغرزية بصفة عامة ، كما يصدق أيضا على غريزتنا الجنسية بصفة خاصة . وتبعا لذلك فان فى وسعنا أن تقول بأن الغريزة الجنسية ــ مثلها فى ذلك كمثل سائر الغرائز الأخرى ــ تقوم على « بناء تحتى » بيولوچى ، و « بناء فوقى » اجتماعى ؛ وهى فى هذا انما تستجيب لتلك العملية المعقدة التى تدفعها الى التسامى بميولها روحيا واجتماعيا .

حقا ان الدراسة الاكلينيكية للكثير من الانحرافات الجنسية قد دلتنا على أن بعض تلك الحالات الشاذة هى وليدة نقص فسيولوچى ، ولكن مثل هذه الانحرافات لا تفسر باختلال التوازن الهرمونى الا استثناء . وأما فى معظم الحالات الباقية ،

فان الانحراف الجنسى يكون فى العادة مقترنا بعوامل أخرى كثيرة مرجعها الى ارتداد أو نكوص (Regression) يطرأ على التطور الجنسى للفرد . ولا نرانا فى حاجة الى الاشارة هنا الى تلك التفرقة الهامة التى أقامها فرويد بين ما هو « جنسى » (Seuxel) وما هو « تناسلى » (Génital) : فقد أصبح من المسلم به اليوم أن للطفل سلوكا جنسيا يسبق ظهور أعراض البلوغ التى تقترن بنمو الغدد التناسلية . ونحن نعرف أن نمو « الجنسية » عند الطفل ـ وهو ذلك النمو الذى يبدأ منذ السنوات الأولى للطفولة ، والذى يترتب عليه كل سلوك الطفل الجنسى فى المستقبل ـ يتوقف على تأثيرات اجتماعية هامة ، لعل أولاها بالعناية تأثير الوالدين الذى قد تترتب عليه بعض العقد الوجدانية الخطيرة . واذن فان الحياة الجنسية عند الطفل ليست مجرد صدى لتأثيرات هرمونية ، بل هى منذ البداية مشوبة بعوامل وجدانية هامة . وتلك حقيقة هامة لابد من أن نعمل لها حسابا كبيرا حينما نكون بصدد دراسة التكوين البيولوچى للمرأة ، حتى لايقع فى ظننا أن العامل البيولوچى وحده هو المسئول عن مصير المرأة نفسيا واجتماعيا . وسنرى فيمابعد الى أى حد يمكن القول بأن الوظيفة الجنسية انما تمثل فى الحقيقة مركبا متكاملا يتم فيه ضرب من التآزر بين « الغريزة التناسلية » و « الغريزة الجنسية » بمعناها الواسع . والواقع أننا هنا بصدد تكامل توافقى قد يطرأ عليه الانحلال حينما يدب الخلاف بين « البناء التحتى » البيولوچى ، و « البناء الفوقى » الاجتماعى،

نظرا لأنه بطبيعته تكامل عسير قلما يصمد أمام أعاصير الانحلال
النفسى !

٤ — ولكن هل يكون معنى هذا أن الفروق البيولوجية لا
تقوم بأى دور فى حياة المرأة ؟ أم هل يكون معنى هذا أن
التكوين البيولوچى للأنثى لا يتدخل بأى حال فى تحديد مصير
المرأة ؟ — تلك بطبيعة الحال مزاعم لم تطرأ لنا على بال : فاننا
لنعرف كيف تلعب المظاهر الجسمية دورا هاما فى حياة المرأة ،
ابتداء من عهد الطفولة الذى قد تدرك فيه أنها مختلفة جسميا
عن الرجل ، حتى عهد الشيخوخة الذى تصل فيه الى سن اليأس ،
بعد أن تكون قد مرت بمراحل البلوغ ، والحيض ، والحمل ،
والولادة ، وما الى ذلك . . . حقا اننا لا نفهم الوقائع البيولوجية
الا فى ضوء سياق وجودى ، اقتصادى ، نفسى ، اجتماعى ؛
ولكننا لا ننسى أن تكوين المرأة البيولوچى هو الذى يجعلها منذ
البداية فريسة لصراع نفسى عميق بين اهتمامها بذاتها وخدمتها
للنوع البشرى ؛ ما دام هو الذى يقضى عليها بأن تكون أداة
النوع فى التكاثر ، ووسيلته الى المحافظة على بقاء أفراده ! وليس
من شك فى أننا مهما حاولنا أن نخفف من حدة الفروق بين
الجنسين ، فاننا لن نستطيع أن ننكر بأية حال أن المرأة الى حد
كبير أسيرة للنوع ، حتى أن معظم المتاعب النفسية التى نلتقى
بها لدى الكثير من النساء ، انما هى فى العادة وليدة هذا الصراع
الكامن لدى المرأة بين « الفرد » و « النوع » . وبينما يكاد
الرجل يحيا لنفسه ، دون أن يجد ذاته مأخوذة فى حبال « النوع » ،

نرى المرأة أسيرة لتلك القوة « الغاشمة » التى تنخـر فى صميم ذاتها ، ألا وهى قوة «النوع» [1] . ولعل هذا هو ماحدا بالانجليز الى تسمية «الدورةالشهرية» للمرأةباسم «اللعنة» (The Curse) فانها لفى الحقيقة عبودية تستكين لها المرأة ، متحملة ما كتب لها أن تتحمله فى سبيل خدمة نوعها البشرى !

بل اننا لو استقصينا كل حياة المرأة النفسية ــ كما سنرى بوضوح فيما بعد ــ لوجدنا أن « المازوشية » (Masochisme)[2] تلعب دورا كبيرا فىمعظم مراحل تطورها ، وذلكبحكم تكوينها البيولوچى نفسه . حقا ان العنصر المازوشى يسير جنبا الىجنب مع العنصر النرجسى (Narcissisme) [3] (كما لاحظت بوضوح الكاتبة القديرة والمحللة النفسية الممتازة هيلين دويتش فى كتابها الضخم عن « سيكولوچية النساء ») : لأن الحياة النفسية للمرأة تقوم على ضرب من الانسجام أو التوازن بين « حب النفس » و « ايذاء النفس » ؛ ولكن من الواجب أن نلاحظ أنه اذا كان للألم على الخصوص فى حياة المرأة سحر كبير لا نكاد نجد له نظيرا عند الرجل ، فذلك لأن حياتها البيولوچية تفرض عليها الكثير من المتاعب والآلام والتضحيات . وبعبارة أخرى

---

(1) Cf. Simone de Beauvoir. "Le Deuxième Sexe" Vol. I. (Les faits et les Mythes) ; Gallimard, Paris, 29e éd., 1949, PP. 64 — 69.

(2) « المازوشية » هى التلذذ مع ايلام الذات ، وعكسها « السادية » (Sadisme) ، وهى التلذذ من ايلام الغير .

(3) « النرجسية » هى العشق الذاتى ، نسبة الى نرجس الشاب اليونانى الجميل الذى كان يتملى جماله على صفحة غدير رائق صاف .

يمكننا أن نقول انه لما كان من الضرورى للمرأة أن تتحمل الألم وتتقبل التضحية ، بحكم وظيفتها التناسلية ، فقد تكفلت الطبيعة بتزويدها بسلاح قوى من « المازوشية » حتى تستطيع بذلك أن تتكيف مع الواقع . ولما كانت هناك أخطار كثيرة تتهدد حياة المرأة منذ البداية حتى النهاية ، باعتبارها خادمة للنوع ، فقد كان لابد لها من أن توحد بين مازوشيتها الأنثوية وقلقها الانسانى وتبعا لذلك فقد وجدت المرأة نفسها مضطرة الى أن توفق بشكل ما من الأشكال بين اهتمامها الفردى بالحصول على اللذة ، واهتمام النوع من خلالها بتحقيق مآربه حتى ولو ترتب على ذلك القدر الكثير من الألم بالنسبة لها . ومثل هذا التوافق لا يمكن أن يتم الا اذا اكتسب الألم المقترن بالعملية الجنسية والوظيفة التناسلية طابع اللذة . والواقع أن استعداد المرأة السيكولوجى للوظيفتين الجنسية والتناسلية لا بد من أن يقترن بالكثير من الأفكار المازوشية . ولعل هذا هو السبب فى أن فكرة الجماع لا بد من أن تقترن فى نظر المرأة بعملية فض البكارة ، وهذه بدورها تقترن بفكرة الاعتداء عليها ونفاذ عضو الذكر الى صميم جهازها التناسلى .
حقا ان الكثير من تهيؤات الطفولة وأخاييل المراهقة قد تزيد من الآلام النفسية والمخاوف السيكولوجية المقترنة بعملية الجماع ، ولكن من المؤكد أن «فض البكارة» : (Défloration) عملية أليمة حقا ، لما يترتب عليها من تحطيم جزء من جسم الفتاة . وحينما تتقبل المرأة هذا الألم المقترن باللذة ، أو تلك

اللذة المقترنة بالألم ، فقد يتم الاقتران فى نظرها بين العنصرين ، حتى لتكاد اللذة الجنسية عندها تصبح متوقفة على الألم . وهذا ما حدا ببعض علماء النفس الى القول بأن الحياة الجنسية للمرأة لا بد من أن تكتسب طابعا مازوشيا . والواقع أن هذا القدر من « المازوشية » هو مرحلة ضرورية لتهيئة الفتاة واعدادها ، حتى تستطيع فيما بعد أن تتوافق مع وظائفها الجنسية ؛ ولكن من الواضح أنه اذا زادت تلك المازوشية عن الحد ، فانها قد تنقلب الى انحراف مرضى تتولد عنه الكثير من الأمراض النفسية .

وربما كان الأصل فى هذا الارتباط الوثيق بين الألم واللذة فى حياة المرأة ، براجع الى وظيفتها التناسلية . وليس من شك فى أن عملية الحمل والولادة تقترن منذ البداية فى حياة المراة بالكثير من النوازع المازوشية . وقد تنحرف هذه المازوشية عن سبيلها السوى ، فتطغى آلام الحمل والولادة ، ومتاعب الوضع والأمومة ، على سرور الأم بوليدها نفسه . وهكذا تكتسب كل الوظيفة التناسلية لدى المرأة طابعا مازوشيا مرَضيا . ولكن مهما يكن من شىء ، فان المازوشية تلعب دورا كبيرا فى حياة المرأة الجنسية والتناسلية معا : لأنها من جهة تقترن منذ البداية بعقدة الخصاء ، والخوف من الحيض ، وعملية فض البكارة ، كما تقترن من جهة أخرى بآلام الحمل والوضع والولادة والأمومة . واذا كان من شأن هذه المازوشية أن تعين المرأة على التوافق مع الواقع بتقبل كل

ما يجىء مع وظيفتها الأنثوية من آلام ، فانهـا اذا زادت عن الحد قد تثـير لدى المرأة ضربا من « الدفاع » (défense) ، فتعمد المرأة الى الفرار من أخطار المازوشية الزائدة بأن تتهرب من وظيفتها وتتنكر لأنوثتها . وسنرى فيما بعـد الى اى حد يتوقف مصـير المرأة كله على تحقيق ضرب من التـوافق الانسـجامى أو التكامل التآزرى بين نوازعها النرجسـية ونوازعها المازوشية[1] .

بيد أننا نعود فنذكر القارىء بأن « الأنوثة » ليست وليدة التكوين البيولوجى وحده ، بل ربما كان الأدنى الى الصواب أن نقـول انها عبـارة عن نواة مركزية تتـألف من عناصر بيولوجية ، وفسيولوجية ، وتشريحية ، وسيكولوجية واذا كان فى وسـعنا أن ننظر الى العناصر العضوية ـ نسبيا ـ باعتبارها عناصر ثابتة ، فاننا سنجد أن العناصر السيكولوجية تختلف باختلاف الأفراد ، وذلك بحسب نوع العمليات الباطنة التى تتحقق لدى المرأة ، ومدى تأثير البيئة على سـلوكها ، وطريقتها فى الاستجابة للمؤثرات الاجتماعية .

٥ ـ أما فيما يتعلق بالضعف الجسمى الذى اعتدنا أن ننسبه الى المرأة ، فان من المؤكد أن تكوين المرأة البيـولوجى قد يجعلها فى نظرنا أدنى قوة وأقل صلابة من الرجل . وآية ذلك أن قوة المرأة العضـلية أقل من قوة الرجـل ، كما أن عدد

---

(١) H. Deutsch: "The Psychlogy of Women", Vol. I, N. Y, Grune, 1944, PP. 276 — 278.

الكريات الحمراء الموجودة لديها أقل مما لدى الرجل ، فضلا عن أن قدرتها على التنفس أضعف ، مما يجعلها أقل قدرة من الرجل على العدو . وان المرأة لتعجز عن رفع الكثير من الأثقال التى ينهض برفعها الرجل ، كما أنها قد لا تقدر على مواجهة الذكر فى المصارعة ، فضلا عن أنه لا تكاد توجد رياضة تستطيع فيها المرأة بحق أن تنافس الرجل . أضف الى ذلك أن المرأة تتصف عموما بعدم الثبات (Linstabilité) ، مما قد يترتب عليه عجزها عن تنفيذ الكثير من المشروعات التى تتجه الى تحقيقها ، نتيجة لعدم قدرتها على ضبط نفسها ومواصلة نشاطها . وهذا ما حدا بالبعض الى القول بأن سيطرة المرأة على العالم الخارجى محدودة ، ما دامت أعجز من أن تحقق مشروعاتها بروح الثبات والصلابة والإستمرار . ومن هنا فقد استقر فى أذهان الكثيرين أن حياة المرأة الفردية أقل خصبا وأدنى ثراء من حياة الرجل[1] .

ولكن هل تكفى هذه المبررات جميعا للقول بأن المرأة تمثل « الجنس الضعيف » ؟ أو بعبارة أخرى : هل يجوز لنا بيولوچيا وفسيولوچيا أن نسم « الأنوثة » بالضعف والنقص والقصور ؟ — اننا لسنا نرمى الى القيام بدفاع متهافت عن المرأة ، ولكننا نرى أنه قد يكون من خطل الرأى أن نخلط بين «القوة» و «الذكورة» ، وبين «الضعف» و «الأنوثة» .

---

(١) Simone de Beauvoir : " Le Deuxième Sexe ", Gallimard, 1949, Vol I. P. 72 — 3.

وعلى الرغم من اعترافنا بما فى وظيفة المرأة من « سلبية » (Passivité) ، فاننا نرى مع ذلك أن العلاقة بين الرجل والمرأة ليست مجرد علاقة بين « موجب » و « سالب » . وحتى اذا نظرنا الى الناحية الجنسية الخالصة ـ وهى تلك الناحية التى تظهر فيها بوضوح « مازوشية » المرأة ـ فقد نجانب الصواب اذا قلنا ان موقف المرأة موقف سلبى محض . ونحن نبادر فنلفت نظر القارىء الى أن كل تلك التعميمات التى قد نضطر اليها عادة لبيان الفروق الموجودة بين الجنسين ، انما هى فى الحقيقة مجرد تقسيمات تسهل البحث ولكنها قد تضللنا اذا اعتبرناها فروقا عامة على الاطلاق . ولو أننا نظرنا الى الحالات الجنسية باعتبارها تكون سلما له درجات متتالية ، لجاز أن نقول ان تلك الصفات التى ننسبها الى كل من الجنسين ، انما تصح بالنسبة الى الأفراد الذين يشغلون أعلى السلم أو أسفله ، أعنى بالنسبة الى « الرجل الحقيقى » و « المرأة الحقيقية » ـ وهما نوعان قلما نلتقى بهما ـ . ولكن هذه الصفات تقل شيئا فشيئا حينما تقترب من الرجل المخنث والمرأة المسترجلة ـ وهما نوعان لا يكاد يخلو منهما مجتمع من المجتمعات .

٦ ـ فاذا ما عاودنا النظر الآن فى قضية «الجنس الضعيف» ، تبين لنا أن كثيرا من مظاهر « الضعف » المزعوم تقترن بمظاهر «قوة» تعوضها الى حد كبير . فمن المعروف مثلا أنه اذا تعرضت المرأة لظروف عدوى ، فان احتمال اصابتها بالمرض يكون أقل

من احتمال اصابة الرجل به فى نفس الملابسات . وهذا هو السبب فى أن نسبة الوفيات بين النساء أقل منها بين الرجال ، على الرغم من الأخطار الكثيرة التى تتعرض لها المرأة عند الحمل والوضع ؛ فضلا عن أن متوسط العمر عند النساء أعلى منه عند الرجال .
وقد نظن أن هذه الحقائق انما ترجع الى بعض ظروف خارجية محضة ، ولكننا لو رجعنا الى الاحصائيات المختلفة ، لوجدنا أن نسبة وفيات الأطفال أكبر بين الأولاد منها بين البنات ، ولو أن الوضع قد يتغير بعد المراهقة بسبب كثرة تعرض الفتيات للأمراض الجسمية والأزمات النفسية . ولكن الملاحظ عموما أنه على الرغم من أن نسبة المواليد من الأولاد أكبر من نسبة المواليد من البنات (١٠٤ ولد لكل ١٠٠ بنت) ، فان عدد البنات اللائى يبقين على قيد الحياة بعد انقضاء السنة الأولى ، أكبر بكثير من عدد الأولاد وهذه الحقيقة ان دلت على شىء ، فانما تدلنا على أن الجنس المؤنث يملك حيوية كبرى ؛ بحيث قد يصح لنا أن نعد جنس المرأة هو «الجنس القوى» اذا أدخلنا فى اعتبارنا قدرة النساء عموما على مقاومة المؤثرات الضارة ، واحتمال التعرض للأمراض والأوبئة .[1]
وليس من شك فى أن قدرة المرأة على احتمال الألم هى أعظم بكثير من قدرة الرجل ، كما يظهر بوضوح من صفة «المازوشية» التى أسهبنا فى الحديث عنها من قبل . ولا تتجلى هذه المقدرة فى تحمل آلام الحمل والوضع وما يترتب عليهما فحسب ، بل هى

---

(١) الدكتور يوسف مراد : « سيكولوجية الجنس » ، دار المعارف ، سنة ١٩٥٤ – (ارجع على الخصوص الى الفصل الاول ص ١٢ – ٤٣) .

تتجلى أيضا فى مناسبات أخرى كثيرة ، خصوصا ابان الحروب . واذا كان من الحق أن تكوين المرأة البيولوچى هو المسئول عن هذه المقدرة على احتمال الآلام لخدمة النوع البشرى ، فان من الثبت أيضا أن هذه المقدره قد تتجاوز حدود المجال البيولوچى المحض . وسواء أكانت قدرة المرأة على احتمـال الآلام محددة بيولوچيا أم معنويا ، فان من المؤكد أن هذه القدرة المعنوية على المقاومة هى حقيقة واقعة . ولا تقتصر هذه القدرة الفائقة على احتمال الآلام ــ لدى المرأة ــ على تلك المتاعب الاضـطراريه التى تفرضها عليها طبيعتها البيولوچية والنفسية ، بل اننا لنجد لدى النساء أحيانا استعدادا هائلا لقبول الكثير من التضحيات الارادية . حقـا ان بين الرجال من هم قديرون أيضا على أخذ النفس بالتضحية ، وتحمل ما يجيىء معها من آلام ، فى سبيل خدمة مثلهم الأعلى ؛ ولكن ربما كانت مقدرة النسـاء فى هذا المضمار أعظم وأشمل . وحسبنا أن نلقى نظرة سريعة على أعمال التمريض والرعاية التى تقدم عليها الكثيرات عن طيب خاطر ، لكى تتحقق من أن « التضحية » عند المرأة لا تقتصر على أبنائها الذين تربطهم بها رابطة الدم .

واذا كان الناس قد دأبوا على الحـديث عن ضعف النسـاء جسمانيا (وهو ضعف لا شك أن له فعلا أسسه البيوچية فى تركيب المرأة عضويا) ، فاننا قد لا نعدم بين الشعوب الزراعية ، ولدى الأجناس البدائية ، ان لم نقل فى بعض المجتمعات الحديثة نفسها ، نسـاء ممتازات يستطعن القيام بالكثير من الأعمـال

العضلية العنيفة . ولا يجب أن يفوتنا أن الكثير من الأعمال الجسمية التى تنهض بأدائها المرأة ــ كالتمريض المستمر مثلا ــ تتطلب الكثير من الجهود ؛ وهى لا تختلف عن باقى الأعمال الشاقة التى يقوم بأدائها الرجل من حيث كمية الطاقة اللازمة للقيام بها ، بل من حيث نوع النشاط المبذول نفسه . وفضلا عن ذلك ، فقد يحق لنا أن نتساءل عما اذا كان هذا الضعف الجسمى (النسبى) الذى نلاحظه لدى المرأة هو وليد تكوينها البيولوجى وحده أو ما اذا كانت عوامل أخرى تربوية واجتماعية قد عملت على زيادته وتقوية مظاهره . وعلى كل حال ، فقد أثبتت التجارب أنه حتى اذا لم يكن فى مقدور المرأة أن تنافس الرجل فى مضمار الرياضة البدنية ، فان اقبالها على ممارسة الكثير من الألعاب الرياضية قد ساهم الى حد كبير فى تقوية بنيتها الجسمية ، حتى لقد أصبحنا نجد بين النساء كثيرا من « الرياضيات » الممتازات ، خصوصا فى مجال السباحة وتسلق الجبال والتزحلق على الجليد وما الى ذلك ... ولو أننا رجعنا الى التاريخ ، لتبين لنا أن نساء اليونان كثيرا ما استطعن أن يتغلبن على الرجال ، كما لا نعدم نظيرا لهذه الظاهرة أيضا بين بعض نساء ألمانيا ، خصوصا ابان القتال ، حينما كانت المحاربات ينافسن الرجال فى ميدان الصراع ! وأما حيث يظل نشاط المرأة مقيدا محصورا ، فان مثل هذه المقدرة الجسمية لابد من أن تكون أضعف وأقل ، كما هو المشاهد مثلا لدى نساء الشرق عامة [1]

---

(١) R. allers : "Psychology of Character." London, Sheed,1939 ,pp. 232—233.

٧ ــ وهناك حجج أخرى كثيرة تثار ضــــد المرأة فى معرض اثبات ضعفها والتدليل على نقصها ؛ وفى مقدمتها الحجــة القائمة على القول بنقص قوة المرأة العقلية . ويذهب أنصار هذه الحجة الى حد بعيد فى التدليل على قصور المرأة فكريا ، فيقولون ان المرأة ذاتها تؤمن فى قرارة نفسها بأنها دون الرجل ، بدليل أن النســـاء قلما يقبلن عن طيب خاطر على استشـــارة محامية أو طبيبة ! [1] وهنا يضطرنا الانصاف الى أن نقول انه لما كان عدد النساء المشتغلات فعلا بالدراسة العلمية أو البحث الجدى لا زال ضئيلا بالقياس الى عدد الرجال ، فان من الطبيعى أن يكون انتاج المرأة أقل من انتاج الرجل ؛ خصوصا فى مضمار الفتوح العلمية والاختراعات الحـــديثة . هذا الى أن « الكشف العلمى » لا يتوقف على المقدرة العقلية والمجهود الذهنى فحسب ، بل هو يفترض أيضا ضربا هائلا من الثقة بالنفس ، والثقة بالمجتمع الذى نعيش فيه . ولكن هذه الثقة لا زالت تعوز المرأة ، لأن النساء قد نشأن فى مجتمعات دأبت على الاقلال من شأنهن والانتقاص من مقدرتهن . وليس من شك فى أنه حينما يقدم المرء على عمل كائنا ما كان ، وهو معتقد فى قرارة نفسه بأنه ليس أهلا له ، فان النتيجة التى سينتهى اليها لا بد أن تجىء مؤيدة لانعدام ثقته فى نفسه ! ولكن السنوات الأخيرة قد شهدت فى مجال الانتاج العلمى والأدبى ، نتيجة لازدياد ثقة المرأة فى نفسها ، الكثير من

---

(1) Ef. Richard Curle : "Women : An analytical Study" Watts, 1947, PP. 50 — 58, PP. 186 — 193.



المؤلفات العلميـة والفلسفية والأدبية المكتوبة بأقـلام نسائيه ممتازة ! وهكذا أصبحنا نسمع عن نساء كثيرات استطعن أن يظفرن بالكثير من الجوائز الأدبية والعلمية ، كما لم نعدم فى مجال الفلسفة نفسه مفكرات ممتازات .

ولو أننا رجعنا الى نتائج الامتحانات المدرسية ، لوجدنا أن الفتيات كثيرا ما يتقدمن على الفتيان فى مجال التحصيل العلمى ، وقد لاحظ بعض علماء النفس أن الفتيات اللائى يظهرن أكبر مقدرة عقلية فى مضمار الدراسة ، هن فى العادة فتيات قد نشأن فى أوساط عائلية تقف فيها المرأة على قدم المساواة مع الرجل ، أو تعمل جنبا الى جنب مع زوجها . ولا ريب أن مثل هذا الجو النفسى هو أكثر الأجواء مناسبة لنمو ثقة الفتاة بنفسها وايمانها بقدرتها العقلية ، مما يترتب عليه اقبالها على الجهد العقلى بقوة وشجاعة ، وانصرافها الى الدراسة والبحث بهمة ونشاط . وفضلا عن ذلك ، فاننا قد لا نستطيع أن نعرف على وجه التحديد الى أى حد يدين أصحاب الأفكار العظيمة لنسائهم بالكثير من آرائهم ؛ ولكن التجربة قد أظهرتنا على أن تأثير المرأة ــ سواء أكانت زوجة أم أختا أم صديقة ــ على الجانب العقلى من حياة الرجل ، قد لا يدانيه أى تأثير آخر . وانا لنعرف أن كثيرا من عظماء الرجال قد ناقشوا آراءهم ومشروعاتهم مع أزواجهم ؛ ولكن غرورهم قد جعل نقد المرأة سرا مطويا فبقى دور النساء فى اختمار تلك الأفكار نسيا منسيا !

٨ ــ وليس أدل على تأثير « فقدان الثقة فى النفس » لدى

المرأة ، من أنها لم تستطع أن تحرز نجاحا ملحوظا حتى فى بعض الميادين التى كانت دائما مفتوحة أمام النساء . وان خصوم المرأة ليتخذون من هذه الحقيقة ذريعة للتدليل على نقص القدرة العقلية لدى النساء ، فيقولون انهن لم ينتجن شيئا مذكورا حتى فى مجال الموسيقى والفنون المختلفة التى طالما كان المجال مفتوحا أمامهن لارتيادها . والحق أن انعدام ثقة المرأة فى نفسها قد حال بينها وبين الانتاج فى شتى الميادين (بما فيها ميدان الفنون نفسه) ؛ ولكنها ما كادت تتحرر من هذا الاسار النفسى ، حتى أخذت تنافس الرجل فى شتى ميادين الانتاج الفنى . وفضلا عن ذلك ، فقد لوحظ أن المرأة لا تكترث فى كثير من الأحيان بالعمل فى ميادين قد لا تتطلب منها قسطا من النشاط العقلى هى دون مداه ، وانما كل ما هنالك أنها لا تجد من نفسها اهتماما . وربما كان السر فى ذلك ــ فيما يقول هيمانز (Heymans) ــ براجع الى أن التفكير المجرد البارد هو أمر قد لا ترتاح اليه المرأة عموما ، نظرا لأنها لا تقنع فى العادة الا بما يرضى حاجاتها الوجدانية وطبيعتها العاطفية . ولسنا ندرى الى أى حد يمكن القول بأن « العاطفية » هى من الخصائص الثانوية المميزة للنساء عموما ، ولكن ربما كان من الصواب أن يقال ان وظيفة الأمومة قد اقتضت أن تكون المرأة أكثر حساسية من الرجل ، وأسرع استجابة للمؤثرات الوجدانية . أما القول بأن المرأة لا تنظر الى الحياة الا من خلال عواطفها ووجداناتها ، أو أنها كثيرا ما تهتدى عن طريق شعورها وبصيرتها الى حقائق قد لا يستطيع الرجل أن يهتدى

اليها بعقله وتفكيره المجرد ، فهو فى نظرنا قول لا يخلو من مبالغة واسراف، خصوصا اذا عرفنا أن ملكة « الحدس» (L'Intuition) المزعومة كثيرا ما تجنح بالمرأة الى اصدار أحكام سريعة ليس لها سند من عقل أو عاطفة . وأما اذا أنعمنا النظر فيما دأب الناس على تسميته باسم «العاطفية» المؤنثة، فقد نجد أنفسنا بازاء «منطق» خاص أملته على المرأة طبيعة حياتها النفسية ، باعتبارها مخلوقا يتعامل فى العادة مع الأفراد والأشخاص ، لا مع الأفكار والمبادىء العامة ! فالرجل فى الغالب حريص على تطبيق المبدأ العام ، وأما المرأة فانها لا تعرف سوى الحالات الخاصة ! والرجل فى العادة ـ ان طلب اليه أن يصدر حكما ـ لا يفكر الا فى مخالفة القانون باعتبارها واقعة تستلزم الادانة ، بينما المرأة ـ ان وضعت موضع القضاء ـ فانها لن تفكر الا فى مصير فرد معين ! واذن فان « منطق » النساء لا ينكر الوقائع ـ كما يحلو للبعض أن يقول ـ وانما هو منطق يهتم بالأشخاص أكثر مما يهتم بالوقائع ! [1]

ولكننا مانكاد نتساق فى بيان هذه الفروق السيكولوجية بين الرجل والمرأة ، حتى نتذكر أننا قد تجاوزنا بكثير حدود العهد الذى قطعناه على أنفسنا ! فقد كان كل غرضنا من دراسة الفروق البيولوجية بين الجنسين أن نمهد لدراسة التطور السيكولوجى للمرأة منذ طفولتها المبكره الى نهاية سن اليأس . ولكن هذه

---

(١) Cf.R. Allers: "The Psychology of Character" 1939, PP. 239 — 241.

المقــدمة البيولوجيــة لم تلبث أن انتقلت بنا الى تعميمــات سيكولوجية نحن أحرص ما نكون على تجنبها ! وربما كان السر فى هذا الانتقال المفاجىء من المجــال البيولوجى الى المجــال السيكولوجى هو أن التكوين البيولوجى للمرأة لم يكن يوما هو المسئول الأوحد عن ذلك المصــير الذى انتهت اليه ! واذن فليس يكفى لتفسير سلوك المرأة أن نحلل جهازها العضوى ، أو أن نفسر علاقتها بمختلف وظائفها العضوية ، أو أن نقول انها دائما فى خدمة النوع ، وانما يجب أن نســتفيد من دراســتنا لبيولوجية المرأة ، دون أن نجعل من التركيب البيولوجى لجسم المرأة « مصيرا » جامدا يرين عليها ، وكأن الطبيعة وحدها هى التى تتكفل بتفسير كل مظاهر السلوك الأنثوى !

الفصل الثانى

البنت فى دور الطفولة

٩ ـ اذا حاولنا أن نستقرىء تاريخ المجتمعات ، فاننا سنجد أن مركز « البنت » فى الأسرة هو منذ البداية مركز ضعيف ، مشوب بالكثير من « الدونية » (Infériorité) فنحن نعرف مثلا كيف كان وأد البنات عند العرب فى الجاهلية نظاما اجتماعيا متبعا : اذ كانت تحفر بجانب الموضع الذى اختير لولادة الأم حفرة عميقة ، فاذا ظهر أن المولود أنثى ، قذف بها حية عقب ولادتها مباشرة فى هذه الحفرة ، وهيل على جسمها التراب ؛ بل لقد كان بعضهم يلجأ الى وأد بناته فى أمكنة خاصة بعيدة عن المنازل حتى لا يدنسها بجثثهن ورفاتهن ! وسواء أكانت أسباب هذا النظام ترجع الى الاملاق وعدم القدرة على تربيه الأولاد ، أم كانت ترجع الى مبالغة بعض العشائر العربية فى الحرص على صيانة أعراضها واتقاء ما يحتمل أن يصيبها بمكروه ، أم كانت ترجع الى دافع دينى بحت على اعتبار أن البنات رجس من خلق الشيطان أو من خلق اله غير آلهتهم ، وأن مخلوقا هذا

شأنه ينبغى التخلص منه [1]، فان من المؤكد أن نظاما كهذا انما يصدر عن شعور اجتماعى عام بحقارة شأن المرأة ووضاعة مركزها الاجتماعى وسوء مصيرها فى الحياة . وعلى الرغم من ان وأد البنات قد اقترن عند العرب ببداوة الجاهلية ، فاننا قد لا نعدم له نظيرا لدى بعض الجماعات الأخرى التى لا يخلو نظامها الاجتماعى من حضارة . وقد كان اليهودى ـ كما ورد فى التلمود ـ يستهل صلاته الى الله قائلا : « أحمدك يا الهى لأنك خلقتنى يهوديا ـ لا وثنيا ، ذكرا ـ لا أنثى ـ » ! ولازال وأد البنات سنة متبعة فى الكثير من المجتمعات ، ولو أننا هنا بصدد « وأد أدبى» نلقى فيه بالأنثى الى «حفرة» النقص والوضاعة وحقارة الشأن !

وان الأسرة ـ حتى فى أيامنا هذه ـ لترحب بمقدم الولد ، خصوصا اذا كان أول وليد لها ، بينما تلقى البنت شيئا غير قليل من سوء الترحيب أو عدم الاكتراث أو الشعور بخيبة الأمل ! ومثل هذا الموقف ، من جانب الأسرة ، قد يعلل بأسباب كثيرة : فان الوالدين قد ينتظران الوريث الشرعى ، أو هما قد يشعران بأن « الولد » أقدر من البنت على تخليد اسم العائلة ، أو هما قد يضيقان ذرعا بتلك الابنة التى سيكون عليها أن تشق طريقها بصعوبة فى مجتمع معقد لم تستقر فيه الأوضاع الاجتماعية ، أو هما قد يعلمان علم اليقين بأن الولد أقدر من البنت على مساعدة

---

(1) « وأد البنات عند العرب فى الجاهلية » ، للدكتور على عبد الواحد وافى ، مجلة الرسالة ، العدد ٤٠٠ ، ٣ مارس سنة ١٩٤١ ، ص ٢٦٤ – ٢٦٧ .

أهله ومواصلة حرفة أبيه .. الى آخر تلك الأسباب الاجتماعية والاقتصادية المعروفة. وقد تتقهقر مثل هذه الأسباب فى المجتمعات الحديثة التى استطاعت المرأة فيها أن تظفر بقدر من المساواة مع الرجل ، ولكن ثمة عوامل خفية لا شعورية تظل تعمل عملها فى صميم تلك المجتمعات . وآية ذلك أن الأم نفسها قد تكون قد وطنت نفسها على استقبال مولود ذكر ، فاذا بها تفاجأ بأنثى هى أبعد ما تكون عن الترحيب بمقدمها ! وقد نظن أن هذا « الجو النفسى » الذى تلقاه البنت لأول مرة ، سرعان ما يزول فتمحى كل آثاره ، ولكن الواقع أنه كثيرا ما تعلق آثاره بنفس الأم ، فلا تلبث الطفلة الصغيرة أن تشعر بأنها تحيا فى جو عائلى غير مستحب . وقد ذهب بعض علماء التحليل النفسى الى أن موقف الطفل أو الطفلة من الأم هو الى حد كبير وليد طريقتها فى معاملته أو معاملتها ، لأن لدى الطفل أو الطفلة حساسية مرهفة نحو الأم ، حتى ابان الأشهر الأولى للرضاعة . وليس من شك فى أن نشأة البنت فى جو تشعر فيه بأنها موجود غير مرغوب فيه ، سرعان ما تتجلى آثارها بوضوح فى كل مظاهر سلوكها ، خصوصا اذا كان مركز الأم فى الأسرة مركزا ضعيفا لا تحسد عليه !

١٠ — حقا ان مركز « البنت » فى العائلة مرتبط الى حد كبير بظروف أخرى كثيرة ، فان من المهم أن نعرف ما اذا كان لها اخوة ذكور عديدون ، أو ما اذا كان لها أخ واحد ، أو ما اذا كانت واحدة بين أخوات عديدات ؛ ولكن الملاحظ عموما أن

شعور البنت بنقصها قد لا يرتبط بشخصها ، بل قد تمتد الى « الجنس » الذى تنتسب اليه بصفة عامة . وقد تبذل البنت الصغيرة جهدا كبيرا فى سبيل تصحيح وضعها فى نطاق الاسرة ، أو فى سبيل تعديل مركزها بين اخوتها وأخواتها ، دون أن تنجح فى الظفر بتقدير والديها ، فلا تلبث أن تتحقق ــ شعوريا أو لا شعوريا ــ من أن الذنب ليس ذنبها هى ، وانما هو ذنب « الجنس الضعيف » الذى تنتمى اليه ! وقد ينمو هذا الشعور لدى البنت فى سن مبكرة جدا ، حتى قبل أن تفطن الى وجود أية فروق بيولوچية بينها وبين الولد . وليس أخطر على الحياة النفسية للبنت من أن تكون وحيدة بين اخوة كثيرين ، أو أن تكون واحدة بين أخوات كثيرات ليس لهن سوى أخ واحد . ولا يخفف من حدة هذا الوضع سوى أن تكون البنت هى الأخت الكبرى التى يعترف لها بحق الولاية على الآخرين ، أو أن تكون هى الأخت الصغرى التى تنعم بتدليل الوالدين ! وكما أن البنت الوحيدة التى تحيا فى أسرة ليس فيها سوى أولاد قد تنزع الى اتخاذ طابع مذكر ، فان الولد الوحيد الذى يحيا فى أسرة ليس فيها سوى بنات قد يميل الى اتخاذ طابع مؤنث ولما كان الأطفال جميعا يشعرون فى طفولتهم المبكرة بالحاجة الى الالتصاق بالأم والاستمتاع بعطفها وحنانها وتدليلها ، فان أول تجربة نفسية يصطدم بها الطفل فى هذه المرحلة هى تجربة الفطام النفسى . وهنا قد يبدو مركز « الولد » أضعف من مركز « البنت » ، اذ لا يلبث الوالدان أن يضنا عليه بالقبلات

والملاطفات ومظاهر التدنيل المختلفة التى تظفر بها أختـه ، بدعوى أنه « رجل » ، وأن الرجل لا يقبَّل ولا يدلل ، ولا يجب أن ينظر الى المرآة ، ولا يجب أن يبكى ، ولا يجب أن يتزين ... الخ . أما البنت فانهـا قد لا تشعر بتأثير صدمة « الفطام النفسى » ، اذ تستمر الأم فى تقبيلها وتدليلها ، ويواصل الأب عطفه وحنانه عليها ، فلا تكاد تشعر بالوحدة ، ولا تكاد مخاوف « الانفصال » ترقى الى عقلها الصغير !

وحينما يفزع الولد الصغير لهذا «الاستقلال» الذى يفرضه عليه والداه ، فقد يتمنى أن يكون بنتا ، أو قد يأبى أن يرتدى سروال الرجال ، أو قد يصر على الاحتفاظ بشعره الطويل ! وحينما يقوى عناد الطفل واستمساكه بالأنوثة ، فقد يصر على أن يتبول كما تتبول البنات ، أو قد يعمد الى تقليد أخواته فى كل شيىء . ولكن الوالدين سرعان ما يتكفلان باقناع الولد الصغير بتفوقه وامتيازه ، بدعوى أنه قد جُعِلَ لحياة جدية تفرض عليه الكثير من التكاليف ، وتلك هى حياة « الرجولة » التى لابد له من أن يفخر بها ويعمل على الوصول اليها . وهنا قد يتخذ معنى « الرجولة » (La Virilité) صورة مجسمة ، فيرتبط هذا المفهوم المجرد بعضو ملموس هو « لقضيب » . ولسنا نظن أن الولد يهتدى تلقائيـا الى أهمية هذا العضو الصغير باعتباره مظهر رجولته وموضع افتخاره ، وانما نحن نميل الى الاعتقاد بأن البيئة التى ينشـأ فيها الطفل هى التى تتكفل ببث هذا الشعور فيه . والظاهر أن الأمهات والمربيات

هن اللائى يخلطن منذ البداية أمام الولد بين عضـو الذكر وفكرة الذكورة ، فلا يلبث الطفل الصغير أن ينظر الى قضيبه باعتباره صميم شخصيته أو باعتباره ذلك « الآخر » (L'autre) الذى تتجسد فيه كل رجولته ! وقد روى أحد الآباء أن طفله الصغير كان قد اعتاد التبول جالسا ، فلما قاده أبوه الى دورة المياه وأراه كيف يتبول الرجال واقفين ، أصـبح هذا الولد الصغير يحتقر البنات اللائى يتبولن دائما جالسات !. ومهما يكن من شيىء ، فان شـعور الولد بالتفوق على البنت لامتلاكه القضيب ليس شـعورا تلقائيا ، وانما هو وليد رغبة الوالدين والمربين فى تعويضه عن ذلك الشعور الأليم بالفطام النفسى ، وهو الشعور الذى قد يجعله يحسد البنت على امتيازها !

١١ ــ بيد أن امتياز البنت على الولد لن يلبث أن يتقهقر ، حينما تأخذ البنت فى الشعور باختلافها عن الولد ، نظرا لعدم توفر « القضيب » لديها . وهنا تتساءل : « هل تشعر البنت حقا بأنها دون الولد » ؟ و « هل يرجع هذا الشعور ــ كما يقول فرويد ــ الى ادراكها لوجود نقص فى تركيبها الجسمانى أو الى رغبتها الحادة فى امتلاك قضيب كالولد ؟ » يبدو لنـا أن النظرية التى تجعل من « اشتهاء القضيب » الأساس الذى يقوم عليه كل سـلوك المرأة هى نظرية بعيدة كل البعد عن الصواب . وحتى اذا لم نسـلم بأن كثيرا من الفتيات يجهلن تركيب جهاز الرجل حتى سن متقدمة ، فاننا نلاحظ فى العادة أن كثيرا من البنات الصغيرات ينظرن الى تلك القطعة الصغيرة

من اللحم التى تتـدلى بين فخذى الولد على أنها شيىء تافه ضئيل الشـأن . وحينما تكتشف البنت وجود عضو الذكر لدى أخيها الصغير أو لدى وليـد حديث ، فانها قد لا تعلق على هذا الاكتشاف أهمية كبرى ، اللهم الا فى مرحلة متأخرة. وقد يحدث أحيـانا أن تنظر البنت الى « القضيب » على أنه ظاهرة شاذة ، فلا ترى فيه سوى زائدة صغيرة تثير فى نفسها الاشمئزار والتقزز ! أما اذا أظهرت البنت ــ فى بعض الحالات ــ اهتماما كبيرا بعضو الذكورة لدى أخ أو رفيق ، فان هذا الاهتمام قد لا ينطوى على أى شعور بالغيرة الجنسية ، وهو قد لايسبب لديها أى شعور حاد بالنقص ، بسبب عدم امتلاكها لمثل هذا العضو ، وانما كل ما هنالك أن البنت قد تعرب عن رغبتها فى امتلاك هذا العضو ، كما ترغب عادة فى امتلاك أى شىء آخـر يقع عليه نظرها ؛ وكثيرا ما تبقى تلك الرغبة مجرد رغبة سطحية [١] .

والظاهر أن فرويد حينما ذهب الى القول بأن حرمان البنت من القضيب يولد لديها الكثير من الاضطرابات النفسية ، فانه ينسى أن عقلية الطفل ليست منطقية بالقـدر الذى يتصوره . وليس أدل على ذلك من أن الطفلة الصـغيرة قد ترى عضو التناسـل لدى أخيها فتبادر الى القول بأنها أيضا كانت تملك

Simone de Beauvoir : "Le Deuxième Sexe" Vol. (١) II., PP. 16 — 19.

شيئا كهذا ، أو أنه سيكون لديها مثله ، أو أنها تملك بالفعل شيئا كهذا ، مما يدلنا على أن الوجود والعدم عند الطفل ليسا بضدين ! وحسبنا أن نلقى نظرة على رسوم الأطفال حتى تتحقق من أنهم لا يرون بالفعل ما هو واقعى ، وانما هم يصدرون فى أعمالهم عن «نماذج» سابقة قد اختلقوها اختلاقا ! ولعل من هذا القبيل مثلا ما رواه أحد الباحثين من أن بنتا صغيرة لم تتجاوز الرابعة من عمرها ، كانت تحاول دائما أن تتبول كالأولاد ، معربة فى الوقت نفسه عن رغبتها فى امتلاك « شيىء طويل يمكن أن يسيل منه البول » ! فنحن هنا بازاء حالة تؤكد فيها البنت امتلاكها لقضيب وعدم امتلاكها له ؛ وهو نمط من التفكير يتفق مع ما أطلق عليه بياجيه اسم التفكير بالمشاركة . وقد يقع فى ظن الطفلة أن الأطفال جميعا يولدون مزودين بقضيب ، ولكن الآباء فيما بعد هم الذين يستأصلون هذا العضو من بعض أطفالهم حتى يجعلوا منهم بنات ! ومثل هذا الظن انما يصدر عن نزعة الطفل المعروفة نحو تأليه والديه ، وجعلهم المسئولين عن كل ما يمتلك ! فالطفلة اذن لا ترى فى « الخصاء » أو « البتر » منذ البداية ضربا من العقوبة ، أو مظهرا من مظاهر الحرمان ؛ وانما الملاحظ أنه لكى يتخذ حرمانها من القضيب طابع العقوبة ، فلا بد من أن تكون الطفلة — من ذى قبل — غير راضية عن موقفها . وهذا ما عبر عنه العالم النفسى جونز بقوله : « ان رؤية قضيب الولد ليست هى الحدث الخطير الأوحد الذى يغير من حياة البنت ويسبب نها

اضطرابا نفسيا ، وانما هى الحلقة الأخيرة من سلسلة طويلة متواصلة الحلقات . » [١]

والواقع أن حدثا خارجيا كرؤية قضيب الولد لايمكن مطلقا أن يكون هو وحده المسئول عن حدوث صدمة نفسية للبنت ، أو عن اصابتها باضطرابات باطنية خطيرة ، وانما يجب أن نعد هذا الحدث بمثابة عامل ثانوى مساعد . وقد يكون من الخطأ أن نخلط بين التبرير العقلى للصدمة النفسية ، وبين هذه الصدمة نفسها : فان الأصل فى الصدمة ليس مجرد حدث خارجى ، بل هو وجود اضطرابات باطنية سابقة . أجل ان رؤية القضيب قد تتسبب أحيانا فى حدوث بعض اضطرابات نفسية خطيرة لدى الفتاة ، ولكن بشرط أن تكون هناك تجارب نفسية سابقة هى التى تتكفل بخلق مثل هذا الموقف . ومعنى هذا أن اكتشاف البنت للاختلاف التشريحى الموجود بينها وبين الولد ان هو الا مجرد تأييد وتثبيت لنقص سبق لها أن استشعرته ، وبالتالى فهو مجرد تبرير عقلى لهذا النقص ، على حد تعبير المحللة النفسية المشهورة هيلين دويتش [٢] .

وحينما يقوم لدى البنت شعور واضح بعجزها عن اشباع رغباتها فى التلذذ الذاتى أو فى الكشف عن جسمها ، أو حينما

---

(١) E. Jones : "Parers on Psycho-analysis" London, Baillire, 1938, P. 615.

(٢) H. Deutsch : "Psychology of Women." Vol. I. 1944, P. 236 — 237.

يقف والداها عقبة أمامها فى سبيل تحقيق عاداتها السرية ، أو حينما تشعر بأنها ليست محبوبة من والديها كباقى اخوتها ، فانها قد « تسقط » على عضو الذكر كل سخطها واستيائها . واذن فان « القضيب » فى ذاته لا يحمل كل هذه المعانى التى ننسبها اليه ، وانما الأدنى الى الصواب أن نقول مع « أدلر » ان الأحكام التقويمية التى يصدرها الآباء والمجتمع هى التى تخلع على الولد ذلك الامتياز الذى يصبح القضيب فيما بعد مجرد رمز له ، فتفسر به الفتاة ما ينسبه النـاس من تفوق الى الولد بالقياس اليها . والواقع أن الفتاة اذ ترى المجتمع يؤثر أخاها عليها ، واذ ترى أخاها نفسه يتيه عجبا برجولته ، فانها لا بد من أن تشعر بالغيرة نحوه ، وبالتالى فانها قد تستسلم للشـعور بالدونية . وقد يحدث فى بعض الأحيان أن تشعر البنت بحقد شديد وضغينة هائلة نحو أمها أو نحو أبيها (فى حالات نادرة) ، أو هى قد تتهم نفسها بأنها المسئولة عن تشويه جسدها ، أو هى قد تلتمس العزاء فى الظن بأن القضيب كامن فى صميم جسمها وأنه لابد أن يظهر فى يوم ما من الأيام!

ومهما يكن من شىء ، فان من المؤكد أن عدم توافر القضيب لدى الفتـاة سيلعب دورا هاما فى حياتها النفسية ، حتى اذا لم تكن تشتهيه فى هذه المرحلة المبكرة من مراحل تطورها . وربما كانت الميزة الكبرى التى يستـمدها الولد من امتلاكه للقضيب هى أنه بامتلاكه لعضو خارجى يمكنه الامساك به ، فانه يستطيع ـ على الأقل ـ أن يجد موضـوعا يتجسد فيه

ويستحيل اليه . ومعنى هذا أن الطفل يقوم بعملية «اسقاط» ، يصبح فيها القضيب هو الشيء الخارجى الذى يرمز اليه ويعبر عنه ؛ ولو أنه لهذا السبب عينه سرعان ما يشعر بأنه مهدد فى صميم هذا العضو الخارجى ، مما يترتب عليه خوفه من «البتر» أو « الاخصاء » . وأما البنت فانها تشعر بأنها لا تملك عضوا خاصا ، وكأن ليس لديها جهاز تناسلى ؛ وهذا الشعور نفسه قد يولد لديها الكثير من المخاوف الباطنة ، اذ يخيل اليها أن الحياة تعمل فى باطنها ، وعملها خفى لا سبيل الى معرفته أو استجلاء كنهه ! وسنرى فيما بعد الى أى حد تلعب تلك المخاوف الباطنية لدى المرأة دورا هاما فى صميم حياتها النفسية .

١٢ ــ بيد أن « القضيب » لا يرتبط فى ذهن الطفلة بأى معنى جنسى ، وانما الملاحظ أن اهتمام البنت بعضو الذكر لا يكاد يتجاوز وظيفته البولية . وحينما ترى الفتاة أخاها الصغير وهو يتبول واقفا ، فانها قد تحاول أن تقلده ، أو قد تشتهى أن تمتلك عضوا تستطيع أن تمسك به وأن تقذف بالبول من خلاله على شكل نافورة أو مجرى عال متدفق ! بيد أنها سرعان ما تتحقق من أن عضوها باطنى ، وأنها لا تملك الامساك به أو التصرف فيه ، فلا تلبث أن تضيق ذرعا بهذا الوضع الخاص الذى يلزمها بأن تتبول بشكل معين قد يكون أقل سهولة وملاءمة من طريقة الولد فى التبول . ولعل هذا هو السبب فى أن كثيرا من البنات قد يحاولن تقليد الأولاد فى التبول ، خصوصا فى الأرياف حيث يحلو للقرويات الصغيرات

أحيانا أن يتبولن واقفات ! ويذهب بعض علماء النفس الى ان هذا هو الأصل فى ولع الكثير من النساء بسقى حدائقهن ، اذ أن الامساك بخرطوم الماء قد يعيد الى لاشعورهن فكرة الامساك بالقضيب والقذف بالبول الى مسافات بعيدة . ولعل من هذا القبيل مثلا مايرويه «هافلوك اليس» عن احدى المريضات من أنها كانت تتهيج لأقل صوت يصدر عن نافورة ، فان صوت المياه المتدفقة كان يذكرها دائما بالصوت الذى كان يحدثه أخوها وغيره من الأطفال أثناء تبولهم ! والظاهر أن معظم تجربة الفتيات الصغيرات المتعلقة بالقضيب انما ترتبط بوظيفته البولية ، خصوصا وأن البنات سرعان ما يدركن قلة مقدرتهن على ضبط أجهزتهن البولية ، بعكس الولد الذى يستطيع الى حد كبير أن يتحكم فى ضبط جهازه البولى . هذا الى أن عضو التبول لدى الولد عضو خارجى يسهل عرضه ، بينما يستحيل على البنت أن تستكشف عضوها البولى أو أن تقوم بعرضه ! وكل هذه الاعتبارات قد تجعل للقضيب أهمية خاصة فى نظر الطفلة ، باعتباره أداة طيعة يتحكم فيها الولد كيفما شاء . ولكننا نعود فنقول ان الملابسات الخاصة هى التى تعمل على زيادة اهتمام الطفلة بعضو الذكر ، وأما فى الحالات العادية فان الامتياز الذى يتمتع به الولد من حيث طريقته فى التبول قد يبقى أمرا ثانويا لا يتسبب عنه تولد أى شعور بالنقص لدى البنت .

وتذهب بعض الباحثات ــ مثل سيمون دى بوفوار ــ الى

أن الطفلة قد تجد فى « الدمية » (أو « العروسة » كما نقول بالعامية) تعويضا عن « القضيب » . والواقع أن « القضيب » هو اللعبة الطبيعية للولد ، لأنه يجد فيه تلك «الذات الأخرى» (Alter ego) التى يتجسد فيها ويسقط شخصيته عليها ، فليس بدعا أن نرى الوالدين والمربين يضعون بين يدى الفتاة « دمية » تقوم بهذا الدور ، فتعوضها عن تلك اللعبة الطبيعية التى حابت الطبيعة بها أخاها الصغير ! والفارق بين «القضيب» و « الدمية » هو أن الأول يمتاز بالفاعلية والاستقلال الذاتى ، بينما لاتكاد الدمية تعدو مجرد شىء « سلبى » يمثل جسم الانسان فى جملته دون أن يتصف بأدنى قدرة ذاتية ! وهنا قد تدخل اعتبارات الجمال والتزين وعرض النفس فى حياة الطفلة السيكولوجية فتشعر الفتاة بأنها لا تكاد تختلف عن دميتها الصغيرة التى تدللها وتقبلها وتسقط ذاتها عليها . وعندئذ قد تشرع فى النظر الى نفسها فى المرآة ، أو قد تحاول أن تنتزع اعجاب الآخرين ، أو قد تعمد الى ادماج شخصيتها فى شخصية تلك « العروسة » الصغيرة التى وضعها الكبار بين يديها !

بيد أنه قد يكون من الخطأ أن نظن ـ كما وقع فى ظن بعض الباحثين ـ أن البالغين هم المسئولون عن اهتمام الفتاة بالدمية ، على اعتبار أنها مجرد « تعويض » يقدمونه لها حتى لا تنصرف الى الاهتمام بالقضيب ! وحسبنا أن ننظر الى ألعاب البنات فى سن متقدمة جدا ، حتى نتحقق من أنها بطبيعتها مختلفة عن ألعاب الأولاد : اذ بينما نجد أن نشاط الأولاد فى العادة يتجه نحو

« الخارج » ، فنراهم يقومون بحركات مختلفة يهتمون فيها ببناء أشياء ثم لا يلبثون أن يعملوا على تقويضها واعادة بنائها ، نجد أن نشاط البنات فى العادة يتجه نحو « الداخل » ، فتعمد البنت الى وضع أشياء داخل البيت الذى ابتنته لنفسها ، وتهتم باحكام غلق أبوابه ، حتى تضمن صيانة ما به من أشياء فى عناية وحرص . واذن فان ألعاب « الفتاة » تتميز منذ البداية بطابع خاص يؤهلها لوظيفة « الأمومة » التى ستنهض بها فى المستقبل ، ألا وهو طابع « بناء العش » ، والاهتمام بترتيب الأشياء ، والعمل على صيانتها والمحافظة عليها . وسنرى فيما بعد الى أى حد تلعب فكرة « الباطن » أو « الداخل » أهمية كبرى فى حياة المرأة ، باعتبارها مخلوقا تحفل حياته بالأحداث الباطنة والتغيرات الداخلية العميقة[1] .

١٣ — ولما كان معظم نشاط البنت منذ الطفولة المبكرة متجها بطبيعته نحو « الداخل » ، فليس بدعا أن تظهر أمارات « النرجسية » على الفتاة الصغيرة التى لم تكد تتجاوز الرابعة أو الخامسة من عمرها . وهنا قد تشعر البنت بحاجتها الى التزين ، واكتساب اعجاب الآخرين ، وعرض نفسها على الآخرين باعتبارها « موضوعا للحب » . وربما كانت ماريا بشكرتشف (Marie Bashkirtseff) (صاحبة تلك المذكرات الخاصة المشهورة) هى خير مثال للفتاة فى هذه المرحلة ، فانا لنجد لديها نزعة « نرجسية »

(١) Cf. H. Deutsch: « The Psychology of Women. », vol. I., 1944. p. 282.

واضحة ، حتى ان البعض ليزعم أن غريزة الأنوثة قد تجلت لدى تلك الفتـــاة منذ طفولتها المبكرة . وهنا تختلف الآراء حـــول « نرجســبة » البنت ، فيزعم البعض أنهــا وليــدة تكوينها البيولوچى ، بينما يؤكد البعض الآخر أنها ثمرة للتربية الاجتماعية ولسنا ندرى ما الذى يمنع من أن تكون هذه الصفة المميزة للبنت وليدة كل من العاملين معا ، فان من الواضح أن المربين لا يمكن أن يفرضـــوا على الفتاة اتجاها سيكولوچيا يتعارض تعارضا جوهريا مع طبيعة تكوينها البيولوچى . ولسنا نزعم بذلك أن « السلبية » المطلقة هى الصفة الأصلية التى تفرضها على المرأة طبيعة تكوينها البيولوچى ، وانما نحن نرى أن هذه السلبية وان كانت نسبية الا أنها داخلة فى صميم تكوين المرأة البيولوچى والنفسى باعتبارها مخلوقا يتجه معظم نشاطه نحو « الداخل » .

ومهما يكن من شىء ، فان من المؤكد أن للتربية والبيئة تأثيرا كبيرا على حياة الطفلة فى هذه المرحلة ، اذ بينما نجد أن المجتمع سرعان ما يضطر الصبى الى تجاوز مرحلة « النرجسية » (التى هى وليدة الفطام النفسى الذى سبق أن تحدثنا عنه) ، نراه يقر الفتاة على مسلكها النرجسى ، ويدفعها الى اتخاذ « السلبية » قاعدة عامة لكل سلوكها . وهنا نجد الولد يتجــه نحو العالم الخارجى ، فيتشــاجر مع رفقائه ، ويتنافس معهم فى الكثير من الألعاب العنيفة ، ويعمد الى تسلق الأشجار ، ويشرع فى احتقار الفتيات ، بينما يرفض المربون أن يسمحوا للبنت بالاتجاه نحو الألعاب العنيفة ، ويأبون عليها أن تتسلق الأشجار أو أن تتصارع

مع الصبيان ، أو أن تسلك مسلك الأولاد بصفة عامة . وعلى الرغم من أن البنت قد تجد لذة كبرى فى أن تشترك مع الأولاد فى ألعابهم ، نظرا لما لديها من نزعة مازوشية قد تجعلها تستعذب ضرباتهم ومظاهر احتقارهم ، فان المربين مع ذلك كثيرا مايحولون بينها وبين اشباع هذه النزعة الأنثوية الطبيعية . واذن فقد يكون من الخطأ أن ننكر على البنت كل نشاط « ايجابى » ، ولكن ربما كان من الخطأ أيضا أن نخلط بين « فاعلية » الولد و « فاعلية » البنت . والحق أن الفتاة لا تميل الى مشاركة الفتيان فى ألعابهم ، مع ما يستتبع ذلك من تحمل للكثير من الآلام والضربات ومظاهر العنف المختلفة ، لمجرد رغبتها فى القيام بنشاط ايجابى ؛ وانما الملاحظ أن ميلها الى النشاط الايجابى لا يكاد ينفصل عن نزعتها المازوشية . وعلى كل حال ، فان المجتمع سرعان ما يلزم الفتاة بالتخلى عن كل نشاط ايجابى ، لكى يجعل منها مجرد « موضوع » يحكم عليه الآخرون، ويسر برؤيته الأغيار . وهنا قد تلعب الأمهات دورا هاما فى قمع كل نشاط ايجابى تبديه الفتاة ، اذ أن المرأة تريد أن تجعل من ابنتها مجرد صورة مصغرة لها ، ومن ثم فانها سرعان ما تشعرها بأن مصيرها رهن بأنوثتها ، وأنوثتها انما تقتضى التخلى عن النشاط والجرأة والعمل العدوانى. وليس عجبا أن يختلف مسلك الأم حيال ابنها عن مسلكها حيال ابنتها ، فان احترامها لرجولته هو الذى يملى عليها ضرورة التخلى عن الحد من حريته ، بينما نراها تحاول جاهدة أن تدمج ابنتها فى نطاق « العالم الأنثوى » الذى جعلت له ! والواقع أن الابن

سرعان ما يقطع صلته بأمه (بوجه ما من الوجوه) ، بينما تظل البنت مرتبطة بأمها ، ويقوى اهتمام الأم بتكوين ابنتها النسوى ، فنراها تحاول تلقينها واجبات المرأة ، كما قد تعمد الى تعليمها القيام بمهام البيت والتدبير المنزلى ، حتى لتكاد البنت تصبح فى نظرها أما صغيرة ، أو امرأة مبتدئة هى فى دور التكوين ! [١]

بيد أنه قد يحدث أن يكون الأب هو المشرف الحقيقى على تربية البنت ، أو قد تكون البيئة التى تحيا فيها البنت بيئة مذكرة ليس فيها سوى أولاد ، أو قد تكون البنت بحكم تكوينها الطبيعى ذات ميول عدوانية ، فنراها عندئذ تتنكر لأنوثتها ، وتنزع بالفعل الى منافسة الأولاد والتفوق عليهم ، محاولة أن تثبت للمجتمع الذى تعيش فيه أنها ليست دون الأولاد الذين ينسب اليهم السبق والأولوية . وليس من الضرورى أن يكون هذا المسلك من جانب الفتاة وليد « عقدة ذكورة » (Mascu-linity Compiex) ، بل قد يكون مجرد تعبير عن رغبتها الدفينة فى التنكر لتلك الدعوى التى يجابهها بها المجتمع حينما يخلط بين « الضعف » و « الأنوثة » . وقد تساهم فى تنمية هذه الرغبة لدى الفتاة عوامل أخرى مساعدة ، كأن يكون أهلها قد اعتادوا أن يدللوها باطلاق اسم ولد عليها ، أو كأن يكونوا قد دأبوا على معاملتها معاملة الأولاد (سواء فى الملبس أم فى المظهر العام) ،

---

(١) Cf. Simone de Beauvoir : «Le Deuxième Sexe», vol. II., Ch. I., pp. 26—28.

مما قد تترتب عليه أحيانا نتائج نفسية خطيرة فى حياتها المستقبلة. حقا ان الفتاة « المسترجلة » قد لا تتخلى عن أنوثتها ، بل هى قد تعمد أحيانا الى اتخاذ « الاغراء » أداة عدوان ، بحيث أن الفتاة لتبدو فى هذه الحالة أقرب ما تكون الى «غانية» صغيرة تتقاذفها نوازع الأنوثة بما فيها من اغراء وتبرج ، ونوازع الرجولة بما فيها من عدوان وتحد . وحينما يستشرى هذا الداء فى نفس الفتاة ، فقد تقع فى المستقبل فريسة للكثير من العقد النفسية ، مما قد ينحدر بها أحيانا الى هوة الدعارة . ولسنا هنا بمعرض الحديث عن « عقدة الذكورة » ، ولكن حسبنا أن نقول ان الصراع النفسى العميق الذى قد يثور فى نفس الفتاة الصغيرة ، حينما تجد نفسها حائرة بين أنوثتها الضعيفة ورغبتها الحادة فى اتخاذ سبيل العدوان المرتبط فى ذهنها بمعانى « الرجولة » ، نقول ان مثل هذا الصراع قد أودى بحياة عدد غير قليل من النساء ، كما يظهر بوضوح من وجود عاهرات مسترجلات سقطن تحت تأثير « عقدة الذكورة » .

١٤ ــ أما فى الحالات العادية ، فان البنت سرعان ما تتحقق من أن المجتمع الذى تعيش فيه هو مجتمع « رجال » ، وأن المرأة لا تحتل فيه سوى مركز ثانوى . حقا ان سلطة الأم قد تبدو لها بادىء ذى بدء سلطة كبيرة تجعل منها سيدة البيت والحاكمة المتسلطة على أمر الأسرة ، ولكنها لا تلبث أن تتحقق من أن دور الأم فى المجتمع لا يدانى بحال دور الأب ، وأن الرجال هم القوامون على نسائهم وأطفالهم . فاذا أضفنا الى ذلك أن معاملة

الرجل لزوجته قد تكون سيئة ، أو أنه قد يعتدى عليها بالضرب أمام أبنائها ، أو أنه قد لا يكف عن توجيه النقد اللاذع لها فى حضرة أولادها ، أمكننا أن نفهم لماذا يسوء مركز « المرأة » فى عين الطفلة الصغيرة التى لم تقس عليها بعد تكاليف الزواج والأمومة ! وقد يحدث أحيانا أن تكون الأم نفسها ساخطة على مصيرها باعتبارها زوجة وأما ، فنراها تحذر ابنتها من الزواج والأطفال ، وتنصحها بعدم الانسياق لكلمات الرجل المعسولة ! ومثل هذا التصرف من جانب الأم قد يحدث فى وقت لا تزال فيه البنت طفلة لا تفهم ولا تعى ، ولكن من المؤكد أن تأثير هذه النصائح قد يبقى عالقا بلاشعور البنت الى أن تجتاز بنفسها مرحلة الزواج وانجاب الأولاد . فاذا عرفنا أن وظيفـه المرأة الجنسية قد تصور للفتاة فيما بعد على أنها « تضحية » يجب أن تتقبلها لارضاء الرجل ، واذا أضفنا الى ذلك أن عمليات الحمل والوضع وتربية الأولاد قد تمثل لها باعتبارها تبعات جسيمة لا تنطوى على أية لذة أو متعة ، أمكننا أن نفهم لماذا تتخذ الكثيرات بازاء مصيرهن مسلك التمرد ، شعوريا كان أم لاشعوريا [1] — وكيف لا تثور الفتاة على « جنسـها الضعيف » وهى ترى أن الرجال هم الذين يحكمون العالم ، وأن أبطال التاريخ والروايات كلهم رجال ، وأن الأمهـات يقبعن فى البيـوت مستسلمـات

---

(1) Cf. R. Allers : « Psychology of Character. », 1939, Ch. V., pp. 225—226.

صاغرات ؟ بل كيف ترتضى بعد اليوم أن تتقمص شخصية أمها ، وهى ترى أن مجتمع « النساء » مجتمع ضعيف لا سند له من بطولة أو قوة ؟ !

« ان آلهة الرجل ـ على حد تعبير سيمون دى بوفوار ـ كائنون فى سماء بعيدة ، حتى لكأن ليس له فى الحقيقة من آلهة ، وأما بالنسبة الى الفتاة الصغيرة ، فان الآلهة ذوو وجوه بشرية ، وهى تحيا معهم تحت سماء واحدة ! » . فالبنت ترى فى الرجال « آلهة » ، لأنها تشعر بأن مقاليد الأمور فى أيديهم ، ومن ثم فانها لا تلبث أن تخلط بين « الرجل » و « الرجولة » ، حتى ليستحيل « الرجل » فى نظرها الى رمز للقوة والبطولة . أليس هناك جان دارك واحدة أمام مئات الأبطال من الرجال ، مثل هرقل وأخيل وداود والاسكندر ونابوليون ؟ أليس الدين نفسه فى يد طائفة من « الرجال » ؟ أليس الأنبياء والرسل والمصلحون جميعا «رجالا» حملوا الأمانة وأدوا الرسالة ؟ بل ألسنا نلاحظ أن المتصوفات أنفسهن يخلطن بين لغة التصوف ولغة الحب فيتصورن أن علاقتهن بالله هى علاقة المحب بمحبوبه ؟ فكيف نعجب اذن اذا رأينا الفتاة الصغيرة تعفر جبهتها على مذبح الرجال ، وكأنها تتعبد لذلك « الجنس القوى » الذى كتب عليها أن تحيا له وتستمد منه أسباب وجودها ؟! ثم هناك الأساطير والروايات : وهذه أناشيد سحرية نملأ بها أسماع الفتيات ، فندعوهن الى الاستسلام لمصيرهن ؛ وليس فى مصير المرأة سوى الصبر والانتظار والعذاب ! وقد نلتقى بفتيات صغيرات لا تكاد

الواحدة منهن تتجاوز الثامنة من عمرها ، فنجد لديهن ادراكا عجيبا لوظيفة المرأة باعتبارها مطلوبة لا طالبة ، معشوقة لا عاشقة ! ولاشك أن هذا الادراك يختلف بحسب طبيعة المجتمعات، ولكن الملاحظ عموما أن الأقاصيص الشعبية والأغانى المشهورة حافلة بمثل هذه المعانى ، وهى مما يعلق بذاكرة الفتاة الصغيرة فى سن مبكرة جدا[1] .

ولعل هذا هو السبب فى أن البنت قد تهتم فى هذه المرحلة بهندامها ومظهرها ، حتى ليكاد « التجمل » أن يصبح عندها وسواسا حقيقيا يلازمها ويرين عليها ! حقا ان هذا الاهتمام بالتزين والتجمل قد لا يحمل أى معنى جنسى ، ولكن من المؤكد أن الفتاة حينما تحرص على جمالها وحسن روائها ، فانها انما تضع نفسها موضع تلك الشخصيات الخيالية التى ذاقت مرارة الحب فى انتظار «الأمير العاشق» ! وهنا قد تلعب «المازوشية» دورا هاما فى حياة الطفلة ، اذ ترتبط فى ذهنها معانى الحب والعذاب ، فتحاول أن تتقمص دور « الشهيدة » أو «المضطهدة»، وتعمد الى الربط بين طفولتها القلقة ومصير المرأة المجروحة المعذبة الصاغرة المستسلمة ! وقد تتخيل الفتاة فى سن التاسعة أو العاشرة أنها قد بلغت سن الحب ، فتحاول خفية أن تضع شيئا من المساحيق على وجهها، أو تعمد الى وضع بعض اللفائف فى

---

(١) قد يكون من الطريف أن يقوم باحث بدراسة تأثير « الأقاصيص الشعبية » على عقلية الفتيات فى مجتمعنا المصرى مثلا .

أعلى ثوبها حتى تبدو ناهدا ، مريدا من وراء ذلك أن تتنكر فى زى امرأة ! وهنا قد تتدخل « الأم » بسلطتها ، بغية أن تقف الفتاة عند حدها ، فلا تلبث الفتاة أن تتمرد على أمها ؛ وقد تتزايد حدة ذلك التمرد ، حتى لتكاد الفتاة تضمر العداء لأمها ، آملة ألا تكون يوما شبيهة بها ! وهكذا نجد أن الفتاة لا تلبث أن تتجه باعجابها وتقديرها نحو نساء أخريات، فنراها تظهر نوعا من العبادة نحو طائفة من النساء اللائى استطعن التهرب من العبودية النسوية ، وفى مقدمة هؤلاء بعض الممثلات والمدرسات والكاتبات . وفى هذه الفترة من فترات حياتها ، تميل الفتاة الى الدراسة ، وتقبل على الاطلاع ، وتحاول التفوق على أقرانها . وقد تختار صديقة تفضى اليها بأسرارها ، وتتبادل معها المعلومات الجنسية . وكثيرا ما يزداد شعور البنات فى هذه المرحلة بما بينهن وبين الأولاد من تنافس ، فنراهن يؤلفن جبهة متحدة تبادلهم ازدراء بازدراء ، وعداء بعداء ! ومع ذلك فقد تشعر الفتاة بعجب شديد اذا عاملها الفتى على قدم المساواة ، كما أنها قد تحاول الظفر باستحسانه واعجابه . وسواء أكانت الفتاة راضية عن مركزها فى الأسرة أم غير راضية ، فان الرغبة فى أن تصبح ولدا كثيرا ماتراودها ، كما تظهرنا على ذلك الاستفتاءات المختلفة التى قام بها الباحثون .

وقد قام كاتب هذه السطور باجراء « استخبار » على بعض تلميذات المدارس المصرية والسودانية البالغات من العمر ما بين الثامنة والثانية عشرة ، وجه فيه اليهن السؤال التالى : « هل

ترغبين فى أن تصبحى ولدا ؟ ولماذا ؟ » ، فكانت نسبة عدد البنات اللائى يرغبن فى تغيير جنسهن حوالى ٧٨٪ . وقد تنوعت أسباب التفضيل لدى البنات ، فكانت اجابة الصغيرات منهن منحصرة فى القول بأن ألعاب الأولاد أكثر تشويقا من ألعاب البنات ، أو أن ملابس الأولاد أكثر ملاءمة للجسم من ملابس النساء ، أو أن حرية الأولاد أكبر من حرية البنات . وأما الكبيرات منهن فقد أبدين أسبابا أخرى للتفضيل ، منها قولهن ان الرجال لا يتألمن كالنساء ، أو ان مستقبل الرجل أفضل من مستقبل المرأة ، أو ان الرجال أقدر من النساء على العمل ... الخ . وقد وردت بين الاجابات المختلفة أسباب أخرى متفرقة منها قول احداهن « انني أفضل أن أشابه والدى » ، وقول أخرى : « انني أريد أن أخيف البنات ! » ... الخ . وهذا الاستخبار ان دل على شىء ، فانما يدل على أن عددا كبيرا من الفتيات ـ حتى فى هذه السن المبكرة ـ يشعرن بسوء مركز « المرأة » ، ويرغبن فى التنازل عن « أنوثتهن » . أما اذا قمنا بعمل استخبار عكسى ، فسنرى بوضوح ـ كما يظهر من الاحصائيات التى قام بها هافلوك اليس ـ أن واحدا فقط بين مائة ولد ، هو الذى يرغب فى أن يصبح فتاة !

١٥ ـ فاذا ما انتقلنا الآن من مرحلة الطفولة بمعناها الصحيح الى المرحلة السابقة على البلوغ (Prepuberty) ، ألفينا أنفسنا بازاء مرحلة جديدة ذات أهمية كبرى فى حياة الفتاة ، ألا وهى مرحلة انتهاء « الكمون الجنسى » . وليس من السهل

بطبيعة الحال أن نقيم حدا فاصلا بين مرحلة الطفولة ومرحلة ما قبل البلوغ ، ولكن ربما كان فى استطاعتنا أن نحصر هذه المرحلة فيما بين السنة العاشرة والسنة الثانية عشرة من عمر الفتـــاة . واذا كان لهذه المرحلة دور هام فى حياة الطفلة ، فذلك لأنها تمثل آخر حلقة من حلقـــات « الكمون الجنسى » ، وبالتالى فانهـــا حقبـــة التحرر من نوازع الجنســـية الطفليـــة . حقا ان البعض قد يربط كل مشاكل الفتاة النفسية بمرحلة البلوغ التى فيها يظهر الحيض (Menstruation) ، ولكن ربما كان من الخطأ أن نقيم ضربا من « التوازى » بين الأحداث العضوية والأحداث النفسية فى حياة الانسان بصفة عامة ، والمرأة بصفة خاصة . وآية ذلك أن هنالك فتيـــات يظهر لديهن الحيض قبل بلوغهن مرحلة المراهقة النفسية ، بينما توجد فتيات أخريات يصلن الى مرحلة المراهقة النفسية قبل أن تظهر لديهن أعراض البلوغ الفســـيولوچى . وعلى كل حال ، فان من المؤكد أن لمرحلة « ما قبل البلوغ » أهمية كبرى فى حياة الفتاة الجنسية والنفسية معا ، لأنها قد تمر خلالها بأحداث وتجارب تترك أثرها فى كل حياتها النفسية المقبلة .

واذا كان فرويد قد ذهب الى أن ما يميز بلوغ الفتاة مرحلة « الأنوثة » هو تزايد شعورها فجأة بالسلبية (Passivity) ، فقد يكون فى وسعنا أن نقول ان ما يميز الفتاة فى هذه المرحلة الســـابقة على البلوغ هو تعطشها الى الفعـــل ، وميلها الى النشاط (Activity) . وهنا قد يتشابه الأولاد والبنات ، فان

مرحلة « الكمون الجنسى » عنـد الأولاد تقترن دائما بتزايد النشاط ، ولكن نشاط البنات مختلف فى هذه المرحلة عن نشاط الأولاد ، اذ لا نجد لديهن أى نزوع عدوانى ، بل نلاحظ أن كل نشاطهن منصرف الى « التكيف مع الواقع » . والحق أن الفتاة لا تلبث أن تجد نفسها فى مأزق حرج : لأنهـا فى حيرة بين طفولة المـاضى وشباب المستقبل ، بين روابط الطفولة الوجدانية وتبعات البلوغ والاستقلال الذاتى . وهكذا نجد أن البنت سرعان ما تقوم بحملة مفاجئة ضد البيئة التى تعيش فيها ، متدرعة بسلاح « الجهد » وعتاد « النشــاط » ، آملة من وراء ذلك أن تظفر باســتقلالها الذاتى ، مع محاولتها فى الوقت نفسه العثور على موضوعات جديدة للحب والكراهية ، يكون فى وسعها أن تعمل على « تقمصها » .

والواقع أن « التقمص » الوجـدانى يلعب دورا هاما فى حياة الفتاة ابان هذه المرحلة ، لأن الموضوع الذى ستتقمصه هو الذى سيفصل الى حد كبير فى نمو حياتها النفسـية وما سيختلف عليها من أحداث . وهنا قد تتخلى الفتاة عن والديها ، باعتبارهما موضوعين سابقين للتقمص ، لكى تختار بدلا منهما موضوعات أخرى جديدة ، مع اظهار شىء غير قليل من العداء والانتقاد نحوهما ، خصوصا اذا لم يكن قد سـبق للطفلة أن انفصلت نفسيا عن شخصـية أمها . وكثيرا ما تشرع الفتاة فى اتخاذ موقف واقعى صرف نحو العالم الخارجى ، فنراها تتخلى فجأة عن تقديرها الزائد لوالديها ، محاولة فى الوقت نفسه أن

تعمل بصرامة وجد على أن تصبح مختلفة فى شخصيتها عن والدتها . ولكن الملاحظ مع ذلك أن الفتاة قد تحاول فى المدرسة أن تقدم صورة نبيلة عن والديها ، على الرغم من أنها قد لا تكف عن انتقادهما فى المنزل . وربما كان السر فى هذه الأقاصيص الخيالية التى قد ترويها الفتاة عن نبل والدتها وشهامة أبيها انها ترغب فى « انكار » نزعتها الى التقليل من شأنهما وميلها الى السخط عليهما . وعلى كل حال ، فان الفتاة اذ تتنصل من شخصية أمها ، وتتهرب من اشرافها ، فانها انما تعبر بذلك عن رغبتها فى تجاوز مرحلة الطفولة ومجاراة البالغين فى الحرية والاستقلال الذاتى . وقد يحدث أن يتحول كل الحب الذى كانت البنت تكنه لأمها نحو « المدرسة » التى تقوم بتعليمها ، أو نحو « فتاة » أخرى تكبرها فى السن ، فتصبح هذه المدرسة أوتلك الفتاة الكبيرة بمثابة « المثل الأعلى » الذى يجسم للبنت كل ما تصبو اليه . وليس من شك فى أن تقمص البنت لشخصية فتاة تكبرها فى السن ، هو مما قد تترتب عليه بعض الآثار النفسية السيئة ، اذ قد تدفعها هذه الفتاة الكبيرة الى الاتيان بأفعال لم تهيأ لها بعد سيكولوجيا .

١٦ ــ وهناك خصائص أخرى تميز الفتيات فى هذه المرحلة السابقة على البلوغ ، ومن أهمها « الفضول » وحب الاستطلاع ، اذ تشعر الفتاة برغبة شديدة فى معرفة الواقع والتأثير عليه ، ومثل هذه الرغبة قد تدفعها الى التدخل فى شئون الغير ، والعمل على تفسير كل شىء وتأويل كل ما يدور

حولها ، مع السعى فى الوقت نفسه الى القيام بدور ايجابى قد يتخذ صورة المساعدة أو المشاغبة . وفضلا عن ذلك ، فان طابع « السرية » سرعان ما ينضاف الى حب الاستطلاع ، فنجد الفتاة تحيط نفسها بهالة من الغموض ، مع ميلها الشديد الى تعرف أحوال الآخرين والوقوف على أسرارهم فى الوقت نفسه . ومثل هذه الحاجة الى اخفاء « الأسرار » قد تقتضى من الفتاة أن تصطفى رفيقة تؤلف معها جبهة صغيرة يكون غرضها الثأر من البالغين ، والقصاص من الأم (أو بديلتها) بصفة خاصة . واذا كانت الفتاة كثيرا ما تريد أن تثأر لنفسها من والدتها ، فذلك لشعورها بأن أمها قد أخفت عنها الكثير من الحقائق ابان الطفولة ، خصوصا ما يتعلق بمسائل الحمل والوضع وولادة طفل جديد . وهذه الحاجة الى اخفاء الأسرار قد تتخذ صورة عجيبة ، فنجد الفتاة تفضى بسرها الى رفيقة طالبة منها كتمان الأمر عن باقى الزميلات ، لكى لا تلبث أن تنهى بالنبأ الى أخرى مستحلفة اياها ألا تذيعه بين الأخريات ، وهلم جرا ! وقد تتولد عن هذه الحاجة نزعة منحرفة تميل معها الفتاة الى خلق الأسرار واختراع الأنباء ، حينما تعز الأحداث ، أو حينما يقفر الواقع ؛ وتلك نزعة قد تبقى لدى كثير من البالغات ، فتجد الواحدة منهن ولوعة بالأسرار ، كلفة بالأقاصيص ، حتى لتكاد تخلط بين الواقع والخيال ! ولعل هذا هو السر فيما اشتهر عن النساء من ميل الى الكذب ، وولع باختلاق الأساطير !

ومن الملاحظ أيضا بان هذه الفترة السابقة على البلوغ آن اهتمام الفتاة كثيرا ما ينصرف نحو العمليات الفسيولوچية والتغيرات البيولوچية ، فنراها تهتم بمعرفة وظيفة الأعضاء التناسلية ، وكيفية تكون الجنين ، وما يتم بداخل الجسم أثناء الحمل ، وعلى أى نحو تتم عملية الولادة ... الخ . وقد ينصب حب الاستطلاع لدى الفتاة على معرفة الدور الذى يقوم به الرجل فى كل هذه العمليات الفسيولوچية ، فسرعان ما نراها تربط بين آلام المرأة المتعلقة بالحمل والوضع والولادة ، وبين ذلك « الفعل الوحشى » الذى يقوم به الرجل نحو المرأة ! ولكن على الرغم من اهتمام الفتاة فى هذه المرحلة بالكثير من المسائل الفسيولوچية ، فانها قلما تبدى أى نشاط جنسى بالمعنى الصحيح . ولما كان نزوع الفتاة فى الدور السابق على البلوغ متجها بأكمله نحو العالم الخارجى ، فاننا لا نكاد نجد لديها أى نشاط انطوائى من نوع العشق الذاتى أو العادات السرية ، بل ربما كان فى استطاعتنا أن نقول اننا هنا بصدد دور « انبساطى » محض . وخير دليل على ذلك أن اهتمام الفتاة بمشاكل الحمل مثلا لا يتعرض فى هذه الفترة لأية صورة من صور الكبت ، بل كل ما هنالك أن الفتاة قد تجتمع بصديقتها لكى تضع كل منهما تحت ثوبها مجموعة من الأقمشة واللفائف حتى تتصور كيف تكون المرأة «الحامل» ! وقد تتعرض الفتاة فى هذه المرحلة لأخيلة « الدعارة » (Prostituaion) ، ولكنها لن تتصرف كالمراهقة التى تسلمها مثل هذه الأخيلة للذعر

والخوف والشعور بالاثم ، وانما كل ما هنالك أنها قد تشترك مع صديقتها فى وضع المساحيق على وجهها ، وطلاء أظافرها بالألوان الصارخة ، وتقمص شخصية « العاهرة » ! [1]

ولا يفوتنا أن نشير الى أهمية « الصداقة » فى هذا الدور : فان علاقات « ما قبل البلوغ » حينما تتخذ صورة « علاقة سادية ـ مازوشية » (Sado - masochistic) ، فانها قد تترك آثارا سيئة فى الحياة النفسية للفتاة « المازوشية » على وجه الخصوص . وقد لوحظ أن عجز بعض الفتيات عن مواصلة الدراسة ، أو متابعة نشاطهن العادى ، قد يرجع أحيانا الى انشغال الفتاة بعلاقة من هذا القبيل من فتاة « سادية » . ومثل هذه العلاقات التى تجىء عادة مع بوادر « البلوغ » هى التى ستحدد مصير الفتاة فى مرحلة المراهقة . وحينما تنضج احدى الصديقتين جنسيا قبل أن يكون نمو الأخرى قد اكتمل ، فان الفتاة المتخلفة قد تنزع بحكم الغيرة أو التقمص الوجدانى الى مجاراة الأخرى فى نشاطها الجنسى الغيرى (Heterosexual) ، دون أن يكون قد تهيأ لها النضج السيكولوجى اللازم . وعندئذ قد تتعرض شخصية الفتاة للاضطراب ، فنراها تستسلم للضعف أو الانحراف أو الجريمة . وربما كانت معظم حالات الدعارة أو الجريمة لدى الفتيات الصغيرات براجعة الى اصابتهن

---

(1) Cf. H. Deutsch : «The Psychology of Women.», vol. I., Ch. I., pp. 15—16.

أثناء مرحلة ما قبـــل البلوغ بتوقف مفاجىء ، مما يترتب عليه انصرافهن عن العلاقات الجنسية المثلية التى لا ضرز فيها ، الى علاقات جنسية غيرية هن لم يؤهلن لها بعد . والواقع أنه اذا كان من الخطر على حياة الفتاة النفسية أن تظل متعلقة بوالديها كما كانت فى مرحلة الطفولة ، فان من الخطر عليها أيضـــا أن تندفع الى مجاراة البالغـــات ، دون أن تكون شخصـــيتها قد نضجت بعد جنسيا وسيكولوجيا .

وهكذا ننتهى الى القول بأن لمرحلة ما قبـــل البلوغ أهمية كبرى فى حياة الفتاة النفسية ، لأن عليها ستتوقف كل الأحداث التى ســـتمر بها فى مرحلة المراهقة . واذا كانت علاقة البنت بالولد فى هذه المرحلة هى علاقة « لاجنسية » (Non-Sexual) ؛ فذلك لأن ما يميز الفتاة هنا هو الرغبة فى العمـــل ، والميل الى النشاط . وحتى اذا وجدت بعض مظاهر النشاط الجنسى لدى الفتيـــات فى مثل هذا الدور ، فان « حب الاستطلاع » هو الذى يلعب الدور الأكبر فى هذه الحالة . وقد تســـتمر آثار هذه المرحلة فى حياة بعض الفتيـــات ، فتصبح الواحدة منهن أميل الى النشاط والعدوان منها الى الانطواء والسلبية ، أو قد يكون هذا النشـــاط « الصبيانى » مجرد رد فعل تقوم به الذات لحماية نفسها من بوادر « الأنوثة » ! وعلى كل حال ، فان الطابع الأساسى الذى يميز الفتاة فى هذا الدور هو سعيها الحثيث نحو النمو ، ورغبتها القوية فى الانفصال عن الماضى ، ومحاولتها المستمرة لبلوغ مرحلة التحرر والاستقلال الذاتى .

ولعل هذا هو السبب فى أن الفتــاة قد تكون طيعة محبوبة فى المدرســة ، بينما هى قد تكون ثائرة متمردة فى المنزل ! وربما كانت كل ثورة البنت على أمها انما هى وليدة شعورها الضمنى بأن الأم هى أقوى رابطة يمكن أن تربطها بالماضى !

الفصل الثالث

الفتاة فى مرحلة المراهقة

---

١٧ ــ يميل بعض الباحثين الى تقسيم مرحلة المراهقة لدى الفتاة الى مرحلتين : مرحلة البلوغ التى تبدأ عندها التغيرات الفسيولوچية ، ثم مرحلة المراهقة التى تتكون خلالها الشخصية خصوصا فى جوانبها السيكولوچية . وعلى الرغم من أنه ليس ثمة حد فاصل بين المرحلتين ؛ فضلا عن أن الظواهر النفسية تسير فى العادة جنبا الى جنب مع التغيرات الفسيولوچية ، الا أنه قد يحسن بنا أن نبدأ بدراسة مرحلة البلوغ على حدة ، حتى نقف على طبيعة تلك المرحلة المبكرة من مراحل المراهقة . وهنا نجد أنه بينما كانت البنت فى المرحلة السابقة على البلوغ لاتكاد تهتم بجسمها ، ولا تكاد تعنى بهندامها ، نراها فى هذه الفترة تنصرف الى العناية بجسمها ، وتكرس الكثير من وقتها وجهدها لتجميل نفسها . وبعد أن كانت الفتاة تستعمل المساحيق والأصباغ حتى تقلد الكبار ، نراها فى هذه المرحلة تتخذ من أدوات الزينة سلاحا تشبع به غرورها وحاجتها الى الشعور بأنها جميلة ! وقد تشتد

رغبة الفتاة فى الحصول على المال اللازم لشراء أثوابها وأصباغها وحليها ، حتى لتلتجىء أحيانا الى طرق غير مشروعة لاقتناء ما يلزمها من حاجيات . وليس من شك فى أن العامل البيولوجى هو المسئول عن اهتمام الفتاة كل هذا الاهتمام بشكلها وهندامها، فان ما يميز المرحلة المبكرة من المراهقة انما هو النضج الجنسى .

وقد يقع فى ظننا أن تأثير العامل البيولوجى بصفة عامة ، والقوى الهرمونية بصفة خاصة ، لا بد من أن يظهر بطريقة صريحة مباشرة فى العوامل السيكولوجية (وهو ما يحدث عادة) ؛ ولكن الملاحظ أن النشاط البيولوجى كثيرا ما يعجز عن السيطرة على الموقف ، بحيث قد لا يتيسر له التحكم فى شتى مظاهر التعقيد النفسى ، وبالتالى فانه قد لا يقوى على توجيه عمليات النضج فى خط مستقيم واضح يؤدى بها نحو « الأنوثة » المطلوبة وهنا يبدأ اهتمام الفتاة بأعضائها التناسلية ، وهو الاهتمام الذى قد ظل حتى الآن فيما وراء الستار ، فتبدأ معه كل تلك المشاكل الجنسية المرتبطة بالعادات السرية . وقبل أن نشرع فى الحديث عن المشكلة الجنسية لدى الفتاة ، ينبغى لنا أن نشير الى أن وظيفة جهاز المرأة التناسلى تختلف بالنسبة الى البنت اختلافا كليا عن وظيفة القضيب بالنسبة الى الولد . وذلك لأن عضو التناسل بالنسبة الى الولد هو جهاز سبق له التعرف عليه ، نظرا لما له عنده من وظيفة مزدوجة . هذا الى أن الولد ــ بخلاف البنت ــ يهتم فى العادة بنمو عضوه التناسلى فى فترة سابقة على اهتمام البنت بعضوها التناسلى ، نظرا لأن قضيبه هو فى نظره

موضع افتخاره ، فضلا عن أنه يستطيع بسهولة أن يلمس مظاهر تطوره وأعراض نضجه الجنسى .

بيد أننا نلاحظ مع ذلك أن اهتمام الفتاة بالمسائل الجنسية قد يفوق اهتمام الفتى بمثل هذه المسائل . وربما كان السبب فى ذلك هو أن المجتمع والمربين والوالدين يشعرون الفتاة منذ البداية بأن حياتها وثيقة الصلة بالأسرار الجنسية من حيض وحمل ووضع وأمومة وتنشئة للصغار ... الخ . واذا كان الشاب قلما يفكر فى وظيفة الأبوة ، فان البنت تعرف مقدما أن كل مصيرها رهن بالزواج والأمومة. وسواء تلقت الفتاة تعليمها الجنسى مبكرا أم متأخرا ، فانها لابد من أن تدرك يوما أن الطفل لايظهر فى بطن الأم بطريقة سحرية ، وانما لابد من أن يتعاون الوالدان على خلقه. ولكن الفتاة لا تلبث أن تشعر بأزمة نفسية عميقة حينما تعرف أنه لا بد لتكوين الطفل من نفاذ عامل غريب الى صميم جهازها العضوى . وقد تقع تحت أنظار الفتيات بطريق الصدفة عبارات كقول التوراة (فى معرض الحديث عن حواء) « انك بالآلام تحبلين وتلدين » ، فتعمل الفتاة خيالها فى تصور تلك الآلام محاولة أن تتقمص شخصية المرأة التى تلد ! وقد تتوهم بعض الفتيات أحيانا ـ حتى فى سن متأخرة ـ أن الجنين يخرج من « الاست » ، فيكون لهذه التصورات من الأثر على أجهزتهن العضوية ، ما قد يتسبب عنه « امساك عصبى » . وحتى اذا أسعد الحظ الفتاة ، وكان فى وسعها أن تحظى بالمعلومات الصحيحة ، فان مجرد تفكيرها فى تمزق غشاء البكارة ، وما قد

يصحبه من نزيف ، قد يستحيل الى أفكار سوداوية تطاردها ولا تكاد تكف عن ازعاجها . وقد روت لنا الكاتبة الفرنسية كولت (Colette) كيف أنها وقعت يوما مغشيا عليها ، عقب قراءتها لوصف دقيق لعملية ولادة بقلم الروائى الفرنسى المشهور اميل زولا . هذا الى أن الفتاة قد تتحقق من كذب الوالدين والمربين ، بخصوص العلاقات الجنسية ، فلا تملك سوى أن تحرمهم ثقتها ، وتضن عليهم بأسرارها !

١٨ — وقد يكون الطابع العضوى للحمل والولادة هو الأصل فى اهتداء الفتاة الى أنه لا بد من أن تكون ثمة عمليـة عضوية تتم بين الزوجين . وكثيرا ما تتجـه عقلية الطفلة نحو الحقيقة ، حينما تلتقى بكلمة « الدم » ، كأن تقرأ مثلا ان هذا الطفل ذو « دم » مختلط ، أو كأن يقال لها ان « دماء » الآباء تجرى فى عروق الأبناء ... الخ . وقد ترتبط العلاقة بين الأبوين — فى نظر الطفلة — بمسألة التبول ، فتظن أن الرجل يتبول داخل المرأة ، أو قد تنظر الفتاة الى العملية الجنسية على أنها فعل فاضح او شىء قذر ! وكثيرا ما يصاب الطفل بخيبة أمل حينما يجد أن الكبار الذين اعتادوا أن ينهوه عن كل ما هو « قـذر » ، هم أنفسهم الذين لا يتورعـون عن اتيان مثـل هذه الأفعال « الشاذة » القذرة ! وقد يحدث أحيانا أن تقع عين الطفل — أو الطفلة — على حالات اتصال جنسى ، بين أناس يشعر بالاحترام نحوهم ، فلا يكاد يصـدق كيف يقـدم الكبار على مثل هذه الأفعـال الخسيسة التى لا تقرها الآداب العامة ! حقا ان التجربة قد دلتنا

على أن الصغار قد يلتقون فى حياتهم العادية بمعتوهين أو شواذ أو منحرفين يقدمون بمرأى منهم على اتيان مثل هذه الأفعال : ولكن علم الفتى أو الفتاة بأن هؤلاء « مرضى » منحرفون قد يحد من شدة دهشته لما يقع تحت بصره ! أما أن يلقى الفتى أو الفتاة لدى الآباء نفسهم ، أو لدى القائمين على تنشئته ورعايته ، أفعالا من هذا القبيل ، فتلك تجربة خطيرة لا بد من أن تبعث فى نفسه الخوف الشديد . وهنا قد يصاب الفتى (أو الفتاة) بصدمة نفسية بالغة ، حتى أنه قد لا يصدق كل ما يقال له عن العلاقات الجنسية ، خصوصا فيما يتعلق بوالديه . وقد يزيد من قلق الفتاة تضارب الأقوال المختلفة عن الحياة الجنسية ، وتناقض المعلومات التى تصل اليها عن دور المرأة فى هذه العملية . واذ تجد الفتاة نفسها فى حيرة شديدة ، لأنها لا تعرف ما اذا كانت العلاقة الجنسية (بالنسبة الى المرأة) لاذة أم أليمة ، فانها قد تحاول أن تكمل ما فى معلوماتها من نقص بأن تقرأ خلسة بعض الكتب الطبية ، أو بأن تسائل زميلاتها المتقدمات فى السن ، أو بأن تنتزع من هنا وهناك (خصوصا من الأفلام والروايات) بعض المعلومات المهوشة . وكل هذا التخبط قد يزيد من غموض المسألة فى نظرها ، خصوصا وأن الوالدين لا زالوا حتى اليوم يترددون فى الاقدام على شرح المسألة الجنسية لأبنائهم بدافع الخجل أو الخوف من « تفتيح آذانهم » ! وقد أسفرت الاستفتاءات العديدة التى قام باجرائها الباحثون عن هذه الحقيقة الهامة ، وهى أن معظم الفتيات يحصلن على معلوماتهن الجنسية خارج

البيت ، من زميلاتهن فى الدراسة . وكثيرا ما ترتبط فى أذهانهن هذه المعلومات بشعور الخوف والجزع والتقزز . ولا شك أن « التربيةالجنسية » قد تؤدى الى القضاء على مثل هذا الشعور ، ولكن مهما حاول الآباء والمربون ، فان « تجربة الحب » هى مما قد تعجز عن صوغه الكلمات ، لأننا هنا ــ كما تقول سيمون دى بوڤوار ــ بصدد تجربة حية لا يفهمها الا من يعيشها ! [١]

وليس من شك فى أن عامل « الصداقة » بين الفتيات كثيرا ما يلعب دورا هاما فى معظم أدوار تطورهن الجنسى والنفسى . ولكن اذا كانت هذه الصداقة فى المرحلة السابقة على البلوغ لا تكاد تعدو صلات « الجنسية المثلية » (Homosexual) ، نظرا لأن موضوع الحب هنا هو نفس الجنس ، فان الملاحظ فى بداية مرحلة المراهقة المبكرة أن عرى هذه الصداقة قد تنفصم ، فتتجه الفتاة نحو مصادقة فتاة أخرى أو نحو مصادقة حدث يافع ، أو هى قد تعود الى الاعتماد على أمها التى سبق لها أن انفصلت عنها ! ومثل هذه العلاقة قد تحول دون تمام نموها ، أو هى قد تؤخر نضجها النفسى تأخرا تاما . وقد يحدث أحيانا أن تتولد فى نفس الفتاة بعض مظاهر القلق أو الحصر النفسى ، على أثر انفصالها عن صديقتها ، دون أن يكون فى وسعها الحصول على أى « تعويض » من جانب أمها . وحينما تحدث القطيعة بين

---

(١) Cf. Simon de Beauvoir : « Le Deuxième Sexe », vol. II., p. 53.

الفتاتين ، نتيجة لخيانة من جانب احداهما ، فقد تقع الأخرى فريسة لعصاب خطير ؛ وفى مثل هذه الحالات قد ترتد الفتاة الى مرحلة الطفولة فتسلك مسلك الأطفال ، وتشعر بحاجتها الى عطف مربيتها أو حدب أمها ، كما أنها قد تتبول على نفسها ، وتتلعثم فى الكلام كالأطفال ، وتنتظر من الآخرين أن يطعموها ... الخ . وكثيرا ما يحدث أن تستمر صداقة الفتاتين ، حتى بعد ظهور الميول الجنسية « الغيرية » (Heterosexual) لديهما ، فيتخذ الموقف طابعا « ثلاثيا » اذ ترتبط الفتاتان بموضوع واحد للحب ، وتتخذ « الجنسية » لديهما طابعا ثنائيا (Bisexual) . والواقع أن الفتاة الصغيرة لا تزال تتأرجح فى هذه المرحلة بين الموضوعات « المثلية » والموضوعات « الغيرية » للحب ، مما يدلنا على أن الاتجاه نحو « الجنسية الغيرية » لايمكن أن يتم الا تدريجيا . وكثيرا ما تجد الفتاتان لذة كبرى فى أن تشتركا معا فى تجارب جنسية مشتركة ، ولو أنهما سرعان ما تفطنان الى أن الكثير من التعقيدات قد تتولد عن هذا الموقف الثلاثى . وحينما تكون احدى الفتاتين أنضج جنسيا من الأخرى فقد تكون علاقتها بالجنس الآخر أكثر جدية ، بينما تظل صديقتها المتخلفة جنسيا فى موقف سلبى لا يكاد يتجاوز العون الأدبى والمشاركة الوجدانية . وهذا ما يحدث على الخصوص حينما يكون الطرف الثالث فى هذه العلاقة هو شقيق احدى الفتاتين ، كما يظهر بوضوح من رواية تولستوى المسماة باسم « الحرب والسلم »

حيث تعمـــل تناشا جاهدة فى سبيل كسب محبة أخيهـــا نيكولا لصالح صديقتها سونيا . [١]

وقد دلتنا التجربة على أن معظم الفتيات فى هذه المرحلة يملن الى الظن بأن والديهن لم يعودا يحبان أحدهما الآخر ، وأنهما بالتالى على وشك الانفصال . وهنا قد تميل الفتـــاة الى التعلق بأبيها ، ولكن الشـــعور بالاثم سرعان ما يحفزها الى الانتصار للأم ، فلا تلبث أن تجد نفسها مضطرة الى ابداء مظاهر الوفاء نحو والدتها . ولكن الملاحظ عموما أن متاعب الأسرة سرعان ما تولد فى نفس الفتاة الرغبة فى التحرر من المنزل ، خصوصا وان حوافزها الجنسية التى لم يتحدد موضوعها بعد قد تدفعها الى البحث عن صلات جديدة ، والاندماج فى مجتمعات أخرى . فاذا ما حدث أن تصدى الوالدان لمثل هذا العلاقات ، أو اذا سارفضا للفتاة السماح لها بالخروج مع أصدقائها وصـــديقاتها ، التجأت الفتاة الى « الهرب » من المنزل ، ولولا أن هذا « الهرب » قد لا يتخذ أحيانا طابع المأساة ، اذ ينتهى الأمر بالفتاة الى العودة الى المنزل ، ومعاودة الحياة السلمية مع والديها . وقلما تؤدى حوافز الجنسية الغيرية الى القيام بمثل هذا التصرف ، خصوصا فى مرحلة المراهقة المبكرة ، وانما الملاحظ عادة أن التوتر الباطنى العنيف هو الذى قد يدفع بالفتيات الى القيام بمثل هذه المغامرات

L. Tolstoy: «War and Peace», transl. by Louise (١) & Aylmer Maude, N-Y., Simon & Schuster. 1942.

الخطيرة . حقا ان الحافز الجنسى قد لا يكون معدوما فى مثل هذه المغامرات ، خصـــوصا اذا اقترن هرب البنت ببعض الأفعـــال الجنسية الغيرية ، ولكن الأصل فى المغامرة أنها نشاط يراد به اظهار الاستقلال الذاتى ، والتعبير عن البلوغ بطريقة حادة .

١٩ ـــ ولو أننا حاولنا أن نستقصى الأسباب التى كثيرا ما تكمن وراء الاضطرابات النفسية المشاهدة لدى الفتيات ابان المرحلة المبكرة من المراهقة ، لوجدنا أن معظم هذه الأسباب انما ترتد فى نهاية الأمر الى حاجة الفتاة للشعور بالاحترام والتمتع بالثقة . حقا ان الفتاة فى هذه المرحلة تنزع الى الاستقلال ، ولكن هذه الرغبة كثيرا ماتكون مقترنة بالشعور بالجزع وعدم الاطمئنان . ولما كانت الفتاة الصغيرة كثيرا ماتكون عاجزة عن ضبط نفسها ، فضلا عما لديها من شعور بانعدام الطمأنينة النفسية ، فانها قد تتعرض للكثير من الأخطار الشخصية الجـــدية ، مما قد يترتب عليه وقوعهـــا فى مشكلة اجتماعية عسيرة الحل . وربمـــا كانت الخاصية الرئيسية التى تميز مرحلة المراهقة المبكرة هى القابلية الشديدة للتهيج النفسى ، مع الرغبة الحادة فى التصريف الحركى ، ولو أن الحوافز الجنسية فى بادىء الأمر قد لا تكون واضـــحة صريحة . ولكن الفتاة قد تنساق الى « مغامرة » جنسية ، بدافع آخر لا يمت الى الاشباع الجنسى بأية صلة ، مطمئنة الى انعدام الرغبة الجنســية لديها ، فسرعان ما تصطدم بأرجاع جدية خطيرة من قبل العالم الخارجى ، وبالتالى فان « المغامرة » البريئة سرعان ما تنقلب الى « مخاطرة » جنسية وخيمـــة العواقب . وكثيرا ما

تكون الفتاة هنا هى « المحرضة » الغاوية ، كما قد يحدث أن تكون قد بالغت فى اظهار أمارات بلوغها ، بحيث ان الشاب ليخطىء فى تقدير سنها ، دون أن يدرى أنها لا زالت قاصرا. وقد دلتنا التجارب على أن عيار الفتاة قد يفلت من بين يديها ، فلا تلبث التجربة الأولى العارضة أن تولد تجارب أخرى متعاقبة ، لكى ينتهى الأمر بالفتاة الى الشعور بأنه لم تعد لها حيلة ، « ما دام كل شىء قد ضاع الآن » ! ومثل هذه التجربة الفاشلة هى منشأ سائر الجرائم الجنسية لدى الفتيات ، بما فى ذلك الدعارة ، والسفاح ، والاجهاض ، والاصابة بالأمراض التناسلية الخطيرة ، الى غير ذلك من النكبات الاجتماعية الوبيلة .

وقد قام المحللون النفسيون بدراسة الكثير من أمثال هذه الحالات ، فأجمعت كلمتهم على أن معظم الانحرافات النفسية التى قد تطرأ على الفتيات فى هذه المرحلة هى وليدة اندفاعهن الى تقليد البالغات ، مع انعدام الشعور الحقيقى بالجنس لديهن ، فلا يكون فى استطاعة آليات الدفاع النفسى أن تقمع الحافز الجنسى أو أن تقاومه ، نظرا لأنها لا تكون بعد قد تكونت لديهن بالقدر الكافى للقيام بعملية « القمع » . فاذا أضفنا الى ذلك أنه ليس ثمة فتاة لا تولد لديها تجربة « الحيض » ضربا من التوتر التناسلى ، وشيئا من الحاجة الى ممارسة العادة السرية ، أمكننا أن نقول ان الحد الفاصل بين المرحلة المبكرة والمرحلة المتأخرة من المراهقة هو أن الأولى ذات ميول جنسية مزدوجة ، بينما الثانية ذات ميول جنسية غيرية . ولكن أمارات الطفولة قد

تظل ماثلة فى كلتا المرحلتين : فتبدو المراهقة المبكرة بمثابة صورة جديدة من صور « دور الطفولة » ، لما فيها من تردد بين موضوعات الحب وبين التعلق بالأب أو بالأم ، بينما تبدو المراهقة المتأخرة – على حد تعبير فرويد – بمثابة صورة جديدة من « الموقف الأوديپى » ، لأن علاقة الفتاة بالشاب فى هذه المرحلة لازالت تنطوى على عناصر معقدة من بقايا رابطة الأب . ولكننا نعود فنقرر أن مراحل نمو الفتاة متشابكة متداخلة ، فليس فى استطاعتنا أن نفصل بينها فصلا قاطعا حاسما ، بل لابد لنا من أن نتذكر أن عمليات المراهقة المبكرة قد تستمر طوال دور النضج السيكولوجى ، كما أن بعض علاقات الطفولة قد تستمر حتى مرحلة المراهقة المتأخرة . وليس أدل على ذلك من أن بعض العلاقات الجنسية المثلية التى قد تتم خلال مرحلة المراهقة المبكرة ، قد تظل باقية سنوات طوالا ، حتى خلال مرحلة النضج النفسى واكتمال نمو الشخصية . ونحن اذا كنا قد فصلنا بين المرحلتين ، فذلك لأننا أردنا أن نبين أهمية العامل البيولوجى فى المرحلة الأولى ، وأهمية عمليات النضج النفسى التدريجى فى المرحلة الثانية .

٢٠ – فاذا عمدنا الآن الى دراسة مرحلة المراهقة المتأخرة ، تبين لنا بادىء ذى بدء أن هذه المرحلة هى بالنسبة الى الفتى والفتاة على حد سواء ، مرحلة عنيفة مليئة بالأزمات النفسية . بيد أن الملاحظ عادة أن الشاب قد ينجح فى اجتياز هذه المرحلة العاصفة فى سهولة ويسر ، بينما قد تقترن المراهقة لدى الفتاة

بالكثير من المتاعب النفسية والأزمات العصابية . والواقع أن « المراهقة » تتخذ بالنسبة الى الجنسين معنى مختلفا كل الاختلاف : اذ هى لا تؤذن بمستقبل واحد بالنسبة الى الرجل والمرأة . فالمراهقة تعنى بالنسبة الى الفتى الانتقال الى مرحلة «الرجولة» ، ومن ثم فان الشاب سرعان ما يفتخر بنمو شاربه ، ويزهو بتضخم قضيبه ، وكثيرا ما يصبح عضو التناسل لدى الشبان معيار مفاضلة ووسيلة تحد . وأما بالنسبة الى الفتاة ، فان المراهقة لا تعنى سوى الاندماج فى زمرة النساء ، وان مجتمعهن لهو بيئة خاملة أجمعت كلمة الناس على أنها أدنى من بيئة الرجال ! وكما أن القضيب يستمد من « السياق الاجتماعى » (Social Context) معظم ماله من قيمة وأفضلية ، فان « الحيض » يستمد أيضا من « السياق الاجتماعى » جانبا غير قليل من مظاهر الضعف واللعنة والدونية ! أليس القضيب هو رمز الرجولة ، والرجولة فى نظر المجتمع هى القوة والامتياز والتفوق ؟ اذن فلماذا لا يكون «الحيض» ، وهو رمز الأنوثة ، أمارة الضعف والخضوع وانقص؟ ان « الأنوثة » لترتبط فى ذهن الفتاة بتلك العادة الشهرية الأليمة ، فنراها سرعان ما تنطوى فى نظرها على معانى الألم والمرض والموت ! وحينما تجد الفتاة نفسها أسيرة لعادة شهرية تعانى خلالها الكثير من الآلام ، فان فكرة الأنوثة قد تقترن فى نظرها بفكرة « الجسم الدامى » ، وفكرة « النزيف الباطنى » .

وهنا نجد أنفسنا مضطرين الى التوقف قليلا عند هذه الظاهرة البيولوجية الهامة ، حتى نرى الى أى حد يؤثر هذا الحدث

الفسيولوچى فى كل سيكولوچية المرأة . والظاهر أن معظم الفتيات يشعرن بالخجل الشديد عند حدوث أول حيض لهن ، حتى ان البعض ليربط بين هذه « التجربة » الأوليـة الهامة ، وبين سائر الأحداث السيكولوچية التى قد تختلف على شخصية المرأة فيما بعد . وقد لوحظ أثناء المحاكمات النسائية أن المرأة قد تكون أكثر استعدادا لأن تعترف بارتكاب جريمة « سفك دم » ، من أن تقر أمام الملأ بأن الدم الموجود على ملابسها لم يكن سوى « طمث » ! والعجيب أن العاهرات أنفسهن قد لا تحمر وجوههن خجلا لشىء ، قدر ما تحمر للاعتراف أمام الرجل بأنهن فى دور العادة الشهرية ! ولسنا ندرى الى أى حد يتخذ الحيض الأول لدى الفتاة طابع « المفاجأة » ، ولكننا نعلم أنه ليس أشق على الأم من أن تفضى الى فتاتها بأسرار هذه العادة الشهرية الأليمة ! واذا كانت الأم نفسها قد تجتهد فى اخفاء هذه الحقيقة عن ابنتها الصغيرة ، فان الفتاة المراهقة قد تتساءل عند حدوث أول حيض لديها عن السبب فى اخفاء أمها لمثل هذه الحقيقة عنها ، كما أنها قد لا تفهم السر فى تستر أمها وعملها على اخفاء معالم دورتها الشهرية . وحينما تكون للفتاة أخت كبرى ، فقد تتكفل هى أحيانا بشرح الأمر لها ، أو قد تستطلع الفتاة حقيقة هذه الظاهرة من زميلاتها البالغات فى المدرسة ، أو قد تحدث لها الدورة الشهرية للمرة الأولى دون أن يكون لديها أى علم بالموضوع ! وقد روى لنا هاڤلوك اليس أن فتاة أقدمت على

الانتحار بدعوى أن مرضا خبيثا ألم بها ، فلما فحصت جثتها بعد الوفاة ، تبين أن هذا المرض الخبيث لم يكن شيئا آخر سوى « الحيض » ! ولكن ربما كان لاقدام هذه الفتاة على الانتحار مبررات نفسية أكثر عمقا وأبعد مدى ، اذ أن اليأس من هذا « المرض العضال » لا يكفى وحده لاتيان مثل هذا الفعل ، اللهم الا اذا كان قد صحبه صراع نفسى تأصل فى أعماق نفسها منذ الطفولة . وعلى كل حال ، فانه ليس من المستبعد أن يتخذ ظهور « الحيض » للمرة الأولى لدى الفتاة طابع « المرض » ، اذ يخيل اليها أن « الدم » هو دليل على حدوث « جرح » أو « نزيف » فى صميم أجهزتها الباطنة . وقد تتوهم الفتاة أحيانا أن « الطمث » هو مظهر لعقوبه تنزل بها لتدنسها أو لبعدها عن الطهارة الروحية . ولكننا نستطيع أن نقرر ــ بناء على بعض الاحصائيات التى قمنا بها فى نطاق ضيق ــ أن عدد الفتيات اللائى يجهلن كل شىء عن الحيض قبل حدوثه ، يكاد يكون محدودا جدا . فمن بين ١٧٥ مراهقة (فى المدارس المصرية ما بين سن ١٢ و١٨) لم يزد عدد اللائى كن يجهلن تماما كل شىء عن الموضوع وقت حدوثه لهن للمرة الأولى عن ٢٤ مراهقة (بنسبة ١٤ ٪ تقريبا) ، بينما أكدت ٨٧ مراهقة أنهن كن على علم غامض بالمسألة ، وقالت ٦٤ مراهقة أنهن كن على علم بكل شىء ! وقد تبين لنا من هذا الاستخبار أن معظم الفتيات فى مصر انما يستقين معلوماتهن عن زميلاتهن البالغات ، وقلة نادرة هى التى تستمد معلوماتها من

الكتب الطبية . ومن العجيب أن بعض الفتيات قد زعمن أنهن عرفن الحقيقة من تلقاء أنفسهن (قبل حدوث أول حيض لهن) ، بينما ذكرت احداهن أن « المسألة طبيعية ، وأن الفتاة تعرفها بالبديهة ! »

بيد أن نتائج التحليل النفسى لا تؤيد بحال مزاعم هذه الفتاة ، فان الملاحظ عادة أن الفتاة لا ترى فى « الحيض » ظاهرة طبيعية ، بل هى قد تستقبل دورتها الشهرية الأولى بشىء من الرفض أو الانكار ، وكأنما هى تحاول أن تدخل فى روع نفسها أنها لا زالت طفلة ! ومن هنا فقد لا تقلع الفتاة عن مواصلة نشاطها العادى ، كأن تقوم بألعابها الرياضية المألوفة ، أو كأن تواصل السباحة أو الرقص أثناء العادة الشهرية . وهذا المسلك قد يتردد على الخصوص لدى الفتيات المسترجلات اللائى يعرفن فى قرارة نفوسهن أنهن لسن رجالا ، ولكنهن يردن مع ذلك أن يبرهن على أنه لا فارق بينهن وبين الرجال ! وقد يتسبب «الحيض» فى تولد ضرب من «الصراع» فى نفسية الفتاة بين عاملين مختلفين : عامل « التقدم » الذى يرحب بالحيض باعتباره مظهرا من مظاهر النضج والبلوغ ، وعامل « التأخر » أو « النكوص » الذى يرفض الحيض باعتباره مظهرا لانتزاع الفتاة من طفولتها ، وصدمة تصيب كل أرجاعها العاطفية المرتبطة بمرحلة الطفولة . ويذهب بعض علماء النفس الى أن رد فعل البنت ضد « الحيض » تتوقف الى حد كبير على الموقف الذى سبق لها أن اتخذته بازاء

العادات السرية . فمن المهم اذن أن نعرف ما اذا كانت الفتاة قد كفت عن ممارسة هذه العادات تحت تأثير الشعور بالاثم ، أو ما اذا كانت لا تزال تناضل فى سبيل التحرر منها وقد يؤدى الحيض بالفتاة الى الاقلاع نهائيا عن العادات السرية ، أو قد يدفع بها نحو ممارسة هذه العادات ، نتيجة لما يصاحب الحيض عادة من زيادة فى « التهيج الجنسى[1] » .

٢١ ــ وهنـــاك أرجاع منحرفة قد تصحب الحيض الأول ، فنجد فتيـــات يصبن بأزمة حادة من « القلق » ، وقد يقترن هذا القلق بتوتر نفسى عام وقابلية شـــديدة للتهيج . وحينما يكون لدى الفتـــاة استعداد ســـابق للوقوع تحت ســـيطرة « عصاب » (ناشىء عن مظاهر صراع باطنى تولد ابان المرحلة الســـابقة على البلوغ) ، فان أول دورة شهرية قد تتسبب فى ظهور هذا « العصاب » بطريقة علنية صريحة . وقد يتخذ قلق الفتاة فى هذه الحالة طابع « الخوف المرضى » (Phobia) ، أو قد يســـتحيل اهتمام الفتـــاة بجســـمها الى « هجـــاس » (Hypochondriasis) ، وكثيرا ما تؤدى الأحاسيس بالاثم الى ردود أفعال من قبيل البارانويا[2] . ومهما يكن من شىء ، فان عملية النضـــج بأكملها هى الى حد كبير تكاد تكون مشروطة بموقف الفتاة من ظاهرة « الحيض » . وليس « النضج » سوى

---

(١) Cf. H. Deutsch: «The Psychology of Women», vol. I., pp. 164—165.

(٢) جنون التشكك والعظمة والشعور بالاضطهاد .

عملية « توتر باطن » تشترك فيها الشخصية بأكملها محاولة أن تجاهد فى سبيل التحرر وتحقيق التوافق مع الواقع من جهة ، وباذلة فى الوقت نفسه مجهودا عنيفا فى سبيل السيطرة على الحوافز الجنسية من جهة أخرى .

وقد لوحظ أن موقف الفتاة ــ أثناء مرحلة التوقع ــ من تلك التجربة الفسيولوچية ، سواء بالقبول أم بالرفض ، قد يؤثر تأثيرا كبيرا على تاريخ حدوثها . فالمشاهد مثلا أنه حينما ترفض الفتاة فى قرارة نفسها هذه التجربة الفسيولوچية ، فقد يتسبب عن هذا الرفض تأخر « الحيض » ، على الرغم من توافر سائر أعراض النضج الجسمى والنفسى لدى الفتاة . أو قد يحدث أحيانا أن يبدأ الحيض ، لكى لا يلبث أن يتوقف لمدة سنوات . وقد ثبت أن تأثير العلاج العضوى على مثل هذا الانحراف الوظيفى قلما يكون ناجعا ، بينما قد ينجح العلاج النفسى فى ازالة أسباب الاضطراب بسرعة فائقة . وليس معنى هذا أن العلاج النفسى لابد أن ينجح فى جميع الحالات ، ولكن الملاحظة قد دلتنا على أن لمثل هذه الاضطرابات العضوية تاريخا سيكولوچيا هو الذى يتكفل بحلها . وقد يكون توقف الحيض مباشرة بعد حدوثه للمرة الأولى بمثابة رد فعل اتخذ صورة « صدمة نفسية » نتيجة للفزع الذى استقبلت به ظاهرة « الطمث » . وهناك حالات مرضية ينقطع فيها المريض تماما ، لكى يحدث نزيف فى موضع آخر من الجسم (من الأنف مثلا أو خلف الأذن) ، دون أن يمتد بحال مثل هذا النزيف الى

الأعضاء التناسلية . وعلى الرغم من أن مثل هذه الحالات قد تكون نادرة ، فان المحللين النفسيين قد وصفوا لنا حالات من هذا القبيل أطلقوا عليها اسم « الحيض بالانابة » (Vicarious Menstruation)[1]

ومهما يكن من شيء ، فان من المؤكد أن ظهور « الحيض » لدى الفتاة يمثل تجربة فسيولوچية وسيكولوچية حاسمة فى سبيلها نحو النضج واكتمال الأنوثة . وقد ترتبط بظهور الحيض كل العوامل النفسية الكامنة فى شخصية الفتاة من غضب ، وخجل ، وهبوط نفسى ، وشعور بالنقص ، واحساس بالذنب ... الخ . وسواء أبدى لها الحيض باعتباره نقمة و « لعنة » أم بدى لها باعتباره حدثا سعيدا يؤذن ببلوغها واكتمال أنوثتها ، فان الفتاة سرعان ما تتحقق من أن وظيفتها مزدوجة : لأنها من جهة مخلوق جنسى له حوافزه الجنسية الفردية ، وهى من جهة أخرى خادمة للنوع البشرى . ولا بد للصراع بين هذين الحافزين : الحافز الجنسى والحافز التناسلى ، من أن يلعب دورا كبيرا فى حياة المرأة المستقبلة . ولكن الملاحظ فى هذه المرحلة أن الفتاة تربط بين « الحيض » وولادة الأطفال ، لأنها تعرف هذه التجربة الفسيولوچية التى مرت بها هى فاتحة عهد « الأنوثة » المكتملة . واذا كان قد وقع فى ظن الكثير من

---

(١) أشارت إلى هذه الحالات المحللة النفسية هيلين دويتش فى كتابها المذكور آنفا (الجزء الأول ص ١٦٨) .

الفتيات أنه لا بد لهن من تجنب كل علاقة بالرجل أثناء الحيض فذلك لشعورهن أثناء الدورة الشهرية بتزايد قابليتهن للتهيج الجنسى ، أو لخجلهن من الوجود فى مجتمعات خوفا من افتضاح أمرهن ! وقد تتجنب بعض الفتيــات كل علاقة بالرجال أثناء الحيض بدافع الخوف اللاشــعورى من الحمل ، خصوصا وان الحمل مرتبط سيكولوچيا بالحيض . أما فى الأحوال العادية ، فان الحيض اذا لم يربط فى ذهن الفتاة بين « الدم » و« الحمل » و « الولادة » و « الموت » ، فانه قد يولد فى ذهنهــا فكرة « الأنوثة » من حيث هى وظيفة جنسية تناسـلية لم بعد فى وسعها بعد الآن أن تتخلى عنها ! وصفوة القول ان « الحيض » هو عملية بيولوچية ذات معنى سيولوچى ، وهى التى تدمغ بطابعها كل حياة المرأة النفسية .

٢٢ ــ وليس مجرد ظهور« الحيض » هو الذى يعلن للفتاة بلوغها مرحلة « الأنوثة » ، بل ان هناك أمارات أخرى هامة ، اذ تشعر الفتاة بأن جسدها قد أصبح مرهف الحساسية ، حتى أنها لتشعر أحيانا بالاضطراب الجنسى لأقل ملامسة ، فضلا عن أن مناطق الحساسية الجنســية عندها سرعان ما تنتشر فى كل موضع من مواضع جسمها ، حتى ليكاد كل جهازها العضوى يصبح « منطقة » ذا قابلية شديدة للتهيج الجنسى erogenous. وقد يكون من سوء حظ الفتــاة فى هذه المرحــلة أن تلتقى بأشخاص منحلين يســتغلون براءتها فى اشــباع انحرافاتهم الجنســية ، فتجىء تجاربها الجنســية عندئذ مقترنة بالجزع

والخوف والكتمان . وعلى الرغم من نضـــج الأعضاء التناسلية لدى الفتيات فى هذه المرحلة ، فقد يتوهمن أحيانا أن « القبلة » كافية للحمل ، وأن وظيفة الأعضاء التناسلية هى وظيفة بولية صرفة . وفى بعض الحالات ، نجد أن الفتيات قلما يربطـــن بين اضطراباتهن العاطفية وبين وجود أعضائهن التناسلية ، نظرا لعدم وجود ظاهرة عضوية واضحة لديهن (كالانتصـــاب مثلا عند الذكر) يمكن أن توضح لهن قيام مثل هذه الرابطة . والواقع أن الهوة فى نظر الفتاة غير معبورة بين أحلام اليقظة الخياليه المتعلقة بالحب ، وبين تلك الوقائع الجسمية المرتبطة بالاتصال الجنسى الذى لا يخلو من حيوانية !

حقا ان ما يميز المراهقة أولا وبالذات هو أنها مرحلة الصراع من أجل تحقيق النضج واستكمال البلوغ ، ولكن من المؤكد أن وسيلة التحرر هنا (كما هى فى كل طور من أطوار النمو) إنما تنحصر فى الانصراف عن بعض القيم السابقة وصرف النظر عن الكثير من العـــلاقات القديمة . وهنا قد تتقمص الفتـــاة بعض الشخصيات التاريخية أو الروائية أو الفكرية ، محاولة أن ترضى نوازعها الجنسية من خلال هذا التقمص الوجـــدانى ، ولو أن الحاجة الى « علاقة شخصية » قد تحول بينها وبين الاكتفاء بمثل الصلات الخياليـــة ! ولكن الملاحظ عموما أن « النرجسيـــة » (Narcissism) قد تلعب دورا هاما فى حياة المراهقة ، باعتبارها الأداة التمهيدية لتقوية شعورها بذاتها . وهكذا تندفع الفتاة نحو الاعجاب بجمالها ، فتتأمل نفسها فى المرآة ، وتبدى اعجابها

مفاتن جسمها ، أو تظهر استحسانها لقوامها الجميل ، وصدرها الناهد ، وساقيها الممشوقتين ! وقد يولد العشق الذاتى لدى الفتاة الكثير من أحلام اليقظة ، فنراها تلتمس فى تلك الأحلام سبيلا الى امتلاك ذاتها على نحو شعرى خيالى ! وحينما تجد الفتاة نفسها وحيدة فى غرفتها ، أو حينما تتاح لها الفرصة لأن توجد فى مجتمعات الرجال والنساء ، فانها قلما تفصل بين رغبتها فى الجنس الآخر وعشقها لذاتها . والظاهر أن الفتاة لا تسعى لتجميل نفسها حتى تأسر الرجل فحسب ، وانما هى تسعى أيضا للظفر باعجاب الرجل حتى تؤكد لنفسها أنها جميلة فاتنة !

بيد أن « النرجسية » حينما تزيد عن حدها ، فانها قد تزيد من صعوبة العلاقات القائمة بين الفتاة وبين البيئة التى تعيش فيها ومن هنا فان الفتاة قلما تتقبل النقد ، خصوصا من جانب أعضاء أسرتها ، كما أنها قد تشعر بأن أحدا لم يعد يفهمها فى الوسط الذى تعيش فيه . ولعل هذا هو الأصل فى اعتقاد الفتاة بأن أحدا لم يعد يحبها ، وهى التى تضم بين جنبات صدرها قلبا يتسع لحب الجميع ! والعجيب أن ثقة الفتاة بنفسها وشعورها بالوحدة يسيران فى العادة جنبا الى جنب ، مما يدلنا على أننا هنا بازاء تجربة سيكولوچية واحدة هى تجربة « اكتشاف الذات لنفسها » . وحينما يزداد التوتر النفسى لدى الفتاة ، نظرا لرغبتها فى أن تحب وأن تحب ، فانها قد تعمد الى ابداء عطفها على تلك « القلوب الكسيرة » التى تراها من حولها ، متنقلة فى حبها من موضوع الى آخر بسرعة فائقة ! وليس المهم هنا هو الشخص

المحبوب نفسه ، بل المهم هو تجربة الحب ذاتها . ولهذا فقد تكون
شخصية « المحبوب » خيالية محضة ، بدليل أن الفتاة قد تكتب
خطابات غرام ترسلها الى نفسها ، أو هى قد تنهمك فى علاقة
غرامية موهومة ، فتتصور أنها عشيقة لشخص لم تتح لها الفرصة
يوما لأن تتحدث اليه وجها لوجه ! ولعل من هذا القبيل مثلا ما
نراه فى مذكرات الأميرة الروسية ماريا بشكرتسف التى نجد
فيها خير تعبير عن « نرجسية » المراهقة ، كما نجد فيها أحسن
وصف لعلاقة غرامية موهومة (مع دوق روسى كبير لم تقع عليه
عيناها يوما الا فى الطريق العام عن بعد !) ولو أننا رجعنا الى
مذكرات الفتيات عموما فى هذه المرحلة ، لتبين لنا أن النزعة
الانفصامية (Autisme) تكاد تسود معظم تفكيرهن ، حتى
أن الأحلام الرومانتيكية لتصبح ظاهرة طبيعية فى دور المراهقة ،
خصوصا مايدور منها حول «عبادة الذات» (Le Culte du moi)
وقد قام كاتب هذه السطور بدراسة بعض « يوميات خاصة »
لمراهقات مصريات ، فاستطاع أن يلمس من خلالها الى أى حد
تحاول الفتاة أن تصل الى « امتلاك ذاتها » من خلال تلك
المذكرات الخاصة . والواقع أن الفتاة قد تتحدث الى كراسة
يومياتها ، كما كانت تتحدث — طفلة — الى « دميتها » ، ومن
ثم فان هذه الكراسة تتخذ فى نظرها صورة « صديق » تفضى
اليه بأسرارها ، وكأنما هى « شخص » حقيقى تروى له آمالها
وآلامها ، وتسر اليه بأسرارها وأخبارها ! وقد تتجلى أحيانا فى
تلك المذكرات رغبة الفتاة الشديدة فى تسجيل الحقائق التى

تخفيها عن أبويها وأهلها والقائمين على تربيتها ، ولكن قد تجيء مثل هذه المذكرات أحيانا أخرى حافلة بالأخاييل والتهاويل وأحلام اليقظة . وليس بدعا أن تهتم المراهقة بتدوين أسرارها ، فانها تشعر الآن بأنها قد أصبحت تملك « ذاتا » خفية لا يدرى من أمرها الآخرون شيئا ، بينما قد تكون هذه الذات فى الحقيقة مجرد ذات خيالية !

٢٣ ـ والحق أن ميل الفتاة فى هذه المرحلة الى الاتجاه نحو المثل العليا ، وحدة شعورها بالذات العليا « Superego » ، مع شعورها فى الوقت نفسه بالمسئولية ، يحملانها على الخلط بين ماتريد أن تكونه وما هى عليه بالفعل ، على الرغم من أن الفارق قد يكون شاسعا بين تلك « البطلة » التى تصورها الفتاة فى مذكراتها ، وبين ذلك « الوجه الموضوعى » الحقيقى الذى يعرفه فيها والدها واخوتها والقائمون على تربيتها . وحينما يقع فى ظن الفتاة أنها مختلفة عما يظنه الناس ، أو أنها أسمى بكثير مما يتوهم والداها وأعضاء أسرتها ، فقد يشتد لديها الشعور بتفوقها وتفردها عن غيرها من الناس ، ومثل هذا الشعور قد يدفعها الى الظن بأن مستقبلها لا بد من أن يجيء أخصب وأحفل من حاضرها المقفر المجدب ! ونبعا لذلك فقد تعمد الفتاة الى التهرب من الحقيقة المظلمة ، والانصراف عن الواقع الضيق ، لكى تحلق بأحلامها وآمالها فى عالم الأوهام والخيالات والتهاويل الجميلة البراقة ! وهنا قد تجعل الفتاة من جسدها معبدا قدسيا ، تحيطه بهالات عجيبة من الجمال والجلال ، أو قدتستسلم لتهاويل

الخيال فتضفى على الأشياء والأشخاص نورا سحريا لا سند له من واقع أو حقيقة ؛ وفى مثل هذه الحالات لا يكون « السحر » سوى مجرد دليل على أن الفتاة تجد نفسها مجعولة لحياة سلبية منفعلة ، بينما هى تريد القدرة والفاعلية والسيطرة . ومن هنا فان المراهقة تؤمن بالسحر : سحر الجسم الفاتن الذى تكشف عنه فتذل لأسرها أعناق الرجال ، وسحر المصير المجهول الذى لابد من أن يواتيها بما تشاء دون أن يكون عليها أن تحرك ساكنا ! أما هذا العالم الحقيقى الذى يفرض نفسه عليها بقوة ، وأما ذلك الواقع الماثل أمامها فى كل لحظة ، فانها قد تحاول أن تنسى كل شىء عنهما ، لكى لا تلبث أن تجد نفسها بازاء مطالب المجتمع ، التى تعيد اليها شعورها بمسئوليتها وضرورة السير بخطى ثابتة نحو الأنوثة المكتملة !

وحينما يشتد الصراع فى نفس الفتاة بين أحلام اليقظة ومطالب الواقع ، فانها قد تستسلم لنوبات اليأس والحزن والبكاء . واذا كانت « الدموع » شيئا مألوفا مستحبا لدى النساء ، فذلك لأن البعض منهن قد يستبقى من دور المراهقة هذه الحاجة الطبيعية الى المازوشية ، وتلك الرغبة الملحة فى الاستسلام لدواعى الألم والصراع والهبوط النفسى . وقد لا يخفف من حدة هذه الحالة سوى ظهور عامل « الجنسية المثلية » الذى يجيىء فيضاف الى عوامل « النرجسية » و « المازوشية » التى سبق أن لاحظناها لدى معظم المراهقات . وهكذا تظهر « الصداقة » بين الفتيات ، فنرى الواحدة منهن تبادل صديقتها

سرا بسر ، وتطلعها على خباياها الجنسية ودواخل حياتها العاطفية وقد تتخذ هذه « الصـداقة » طابعا جنسيا صريحا ، فتكشف بعض الفتيات عن عريهن أمام البعض الآخر ، وتقارن الواحدة منهن بين صدرها وصدر زميلتها ، وقد تنتشر فيما بينهن عادات الملاطفة الجنسـية ، ومظاهر الاتصـال الموضعى أو الملامسة المنتشرة على سطح الجسم كله . وهنا يذهب بعض علماء النفس الى أن الاتصالات الجنسية فيما بين الفتيات تكاد تكون ظاهرة عامة هى أكثر انتشارا مما قد تتوهم . ولكننا نميل الى الاعتقاد — بناء على بعض الاحصائيات والمراجعات التى لاتخلو من دقة علمية — بأن الصداقة التى تتم بين الكثير من المراهقات لاتتخذ بالضرورة طابعا جنسـيا صريحا . حقا ان انتشـار مثل هذه الصلات الجنسية بين الفتيات يختلف باختلاف البيئات والأجناس والعادات ، ولكن ربما كان فى استطاعتنا أن نقول بصفة عامة ان الأصل فى معظم صلات « الجنسـية المثلية » هو حافز الاتصال أو الاتحاد بالأم . فالفتاة التى تتعلق بصـديقة لها انما تعبر عن حاجاتها اللاشعورية الى الحب الأنثوى ، ذلك الحب الرقيق الذى عرفته الفتـاة ابان عهد الطفولة . ولا يجب أن ننسى أن الميول الجنسية المثلية التى نجدها لدى الفتيات قد لاتنفصل عن ميولهن النرجسية : فان اعجاب الفتاة بمفاتن جسم زميلتها انما هو بمثابة انعكاس لاعجابها بنفسـها ، وتأكيد لعبادة الأنثى بصفة عامة . وبينما نجد أن الرجل من النـاحية الجنسية هو بمثابة « ذات » مستقلة قائمة بذاتها ، لأن الرجال هم فى العادة منفصلون بعضهم

عن بعض بحكم اتجاه كل واحد منهم الى موضـوع « غيرى » للحب[1] ، نجد أن المرأة هى أقرب ما تكون الى موضوع مطلق للرغبة ، ولهذا فاننا كثيرا ما نشاهد فى المدارس الثانوية للبنات ، وفى منازل الطالبات ، « صداقات أنثوية » عـديدة ، قد تكون أحيانا روحية خالصة ، وقد تكون أحيانا أخرى جنسية متطرفة .

٢٤ ـ أما اذا نظـرنا الى الطابع الخاص الذى يتخذه النشاط الجنسى لدى المراهقة ، فاننا نلاحظ أن الفتاة تدرك صميم وجودها الجنسى باعتبارها « رغبة » و « نداء » . ومهما حاولت الفتاة أن تعبر عن حاجتها الجنسـية وتعطشها الى الرجل ، فانها لا تملك سوى أن تضع نفسها فى الموضع الذى يسمح لها بأن « تستثير » الرجل . ولسنا نريد أن نذهب الى حد القول بأن كل نشاط المرأة الجنسى هو نشاط سلبى ، قابل ، « انفعالى » محض ؛ وانما كل ما نريد أن نقرره هو أن حيـاة المرأة الجنسية مقترنة بالكثير من الحوافز العميقة الباطنة . ومعنى هذا أن نشاط الفتاة الجنسى هو نشاط خفى مستتر ، قد لا يملك التعبير عن نفسه بصراحة . ولعل هذا هو السبب فى أن الفتاة قد تجد نفسها مضطرة الى تحمـل شهوتها الجنسية ، كأنما هى مرض خبيث تجهل أسبابه . فاذا أضفنا الى ذلك مشـاعر « الخجـل » التى تقترن بأسـباب بيولوجية وسيكولوجية واجتماعية معـروفة ، أمكننا أن نفهم لماذا يتخذ

---

(١) لسنا نزعم بذلك أن « الجنسية المثلية » نادرة بين الرجال ، ولكننا نرى أنها ليست وليدة حاجة طبيعية لدى الرجل .

النشـاط الجنسى لدى الفتاة طابع الانتظار والتوقع والسلبية .
وبينما تتخذ الرغبة الجنسيه لدى الفتى صورة ايجابية عدوانيه ،
نرى الفتـاة لا تحلم قط بالاعتداء والاسـتيلاء ، وانما هى تحلم
بالارتماء والاستسلام . وكثيرا مايبدو «الجسم» للفتاة شيئا هشا
ضعيفا معرضا للخطر فى كل لحظة ، فنراها تشعر بأنها مهددة فى
صميم كيانها ، وأنها مجعولة للرجـل يمتلكها ويسيطر عليها وينفذ
الى صميم وجودها ! واذ تحس الفتاة بأنها أنثى كاملة يمكن أن
تصبح « امرأة » ، فانها قد تجزع لفكرة « الاتصـال الجنسى »
بشخص من الجنس الآخر . ولاشك أن معظم مخاوف الفتيات انما
ترتبط بفكرة «فض البكارة» و «نفاذ» عضو الرجل فى صميم
جهاز المرأة ، وامتلاكه التام لجسدها باعتباره « موضوعا » يسيطر
عليـه ويتحكم فيـه . واذا كانت الفتـاة تجزع لفكرة فض
بكارتها ، فما ذلك لأنها تعرف أن هذه العملية تقترن بجرح وألم ،
ولكن لأنها تخشى هذا الجرح وذلك الألم باعتبارهما مفروضين
عليها « من الخارج » . وهذا ما عبرت عنه احدى الفتيات بقولها
« انه لمن المفزع حقا أن تفكر الفتـاة فى أنه لا بد للرجل من أن
« يخترقها » . » واذن فان ما تخشاه الفتاة ليس هو عضو الرجل
فى ذاته ، بل فكرة « الاختراق » أو « النفاذ » باعتبارها منطوية
على معانى الضعة والخضوع والانهيار !

وقد لاحظ كثير من المحللين النفسيين أن مخاوف الفتاة تزداد
فى مرحلة المراهقة ، فتبدو فى أحلامها المزعجة معانى « الاعتداء »
(Le Viol) ، ورموز « الفعل الجنسى» بما فيه من عنف وقسوة.

وقد أسهب فرويد فى الحديث عن تلك الرموز الجنسية المختلفة ، فبين لنا كيف أن اقتحام غرفة مظلمة أو اهداء جوهرة ثمينة أو تقديم باقة من الورد أو ما الى ذلك من الأفعال ، يمكن أن تعبر فى الحلم عن رغبة الفتــاة فى الاستسلام للرجل . ولسنا نريد أن نفيض فى الحديث عن أحلام الفتاة ، فان « رمزية » الحلم تختلف باختلاف مكنونات اللاشعور لدى المراهقة . ولكن حسبنا أن نقول انه على الرغم من رغبة الفتاة الشديدة فى استكشاف معالم الحياة الجنسية ، فانها قد تهتم كل ليلة باغلاق حجرتها قبل النوم والتحقق من أن أحدا لم يتسلل اليها ، فضلا عن أنها قد تخشى بالليل أن يقتحم غرفتها أحد ، أو أن يعتدى عليها لص أو شخص أجنبى لا تعرفه ! وكل هذه المخاوف انما تعبر عن حرص الفتاة على صيانة نفسها ، وخشــيتها من أن يعتدى عليها أحد . وقد يتجه عداء الفتاة نحو أبيها فنراها تكره رائحة لفائف تبغه ، وتنفر من أن تدخل الحمام بعده ، وتحاول أن تصده عنها اذا ما حاول أن يبدى نحوها شيئا من العطف . وهناك حلم كثيرا ما يتردد لدى الفتيات فى هذه السن : اذ ترى الواحدة منهن فى المنام أن رجلا اعتدى عليها على مرأى من سيدة كبيرة فى السن ، وبناء على موافقتها ! ومعنى هذا الحلم فيما يرى بعض المحللين النفسيين أن الفتاة تطلب رمزيا الى أمها أن تأذن لها بالاستسلام لرغبتها الجنسية . وليس من شك فى أن كثيرا من هواجس المراهقة انما ترتبط بفكرة « البراءة » و « الطهر » : اذ تشــعر الفتاة بأن المجتمع يضطرها الى الرياء والنفاق ، ما دام يطلب اليها النقاء

المطلق والعفاف التمام ، بينما هى تحس فى قرارة نفسها بأن حوافز الجنس تعمل عملها فى صميم وجودها باعتبارها فتاة . ولعل هذا هو السبب فى أن تحول الفتاة الى « امرأة » لا يتم فى جو من « الخجل » فحسب ، بل هو يتم أيضا وسط عاصفة شديدة من الآلام النفسية و « تأنيب الضمير » [1] .

٢٥ ــ بيد أن الفتاة سرعان ماتتقبل وضعها باعتبارها « أنثى » مجعولة للرجل ، وبالتالى فانها لن تلبث أن تفهم أن « الزواج » هو غايتها الوحيدة ، وأنه لابد لها يوما أن تلتقى بفتى أحلامها ! حقا ان الشاب هو الآخر كثيرا ما يفكر فى « فتاة » أحلامه ، ولكن الحب بالنسبة الى الشاب ليس سوى مجرد رغبة جامحة تطوف به وتلح عليه ، بينما هو بالنسبة الى الفتاة صميم « وجودها » باعتبارها امرأة قد جعلت للزواج والأمومة . وهذا ما عبر عنه نيتشه بقوله : « ان كل ما فى المرأة لغز ، وليس لهذا اللغز من حل سوى الولادة .. ليس الرجل للمرأة الا وسيلة ، أما الغاية فهى دائما : الولد ... لقد خلق الرجل للحرب والقتال ، وأما المرأة فانه ليس ثمة لديها شىء سوى الحب والطفل ... وتبعا لذلك فان سعادة الرجل هى : « أنا أريد » ، وأما سعادة المرأة فهى « هو يريد » . » [2] . والواقع أن المجتمع قد جعل من

---

(١) ارجع الى الفصل الاول من كتاب سيمون دى بوفوار (الجزء الثانى) عن « الجنس الآخر » ، ص ٧٤ ــ ٧٥ .

(٢) Cf. F. Nietszche : "Thus Spoke Zarathustra", Engl. Transl., 1933. PP 57 — 58.

« الزواج » المستقبل الأعظم للمـرأة ، فانها لتلتمس فى حمى السعادة الزوجية تلك الطمأنينة النفسية التى كانت تتمتع بها فى ظل والديها . وليس الزواج بالنسبة الى الفتاة مجرد حياة آمنة تحلم فيها بالطمأنينة فى ظل الرجل ، وانما هو أيضا السبيل الوحيد الذى يمكن عن طريقه أن تصـل الى تحقيق كرامتها الاجتماعية باعتبارها زوجا وأما . وهكذا نجد أن هدف الفتـاة الأول ـ بحسب الأوضاع الاجتماعية الراهنة ـ هو الحصول على زوج ! ولهذا فان «الرجل» سرعان مايتخذ فى نظرها صورة « الموجود الآخر » الذى يكمل نقصها ويضمن لها « الأهمية » ، باعتباره ذلك الموجود « الجوهرى » الذى يحررها من منزل والديها ، وسلطة أمها ، والذى ينتقل بها من دور الطفولة الى حياة البلوغ والاكتمال .

ولا يجب أن ننسى هنا أن « جسم » الفتاة يلعب دورا كبيرا فى تكوينها النفسى : فان الملاحظ عموما أن العلاقة وثيقة لدى المرأة بين الافرازات الغددية والجهاز العصبى . ولعل هذا هو ما حدا بالبعض الى القول بأن جسم المرأة « جسم هستيرى » ليس فيه أدنى فاصـل بين الحياة النفسية والعمليات الفسيولوجية . وقد يبلغ شعور الفتيات بأجسامهن حد المرض ، فيخيـل الى الواحدة منهن أن جهازها العضوى مختل ، أو أنها على شفا الانهيار العصبى . ولكن بعضا من الأطباء قد لاحظ أن تسعة أعشار الفتيات اللائى يشتكين ، هن فى العادة مريضات موهومات ، اما

لأن آلامهن المزعومة ليست بذات طابع فسيولوچى ، أو لأن ما لديهن من اضطراب عضـــوى هو مجرد عرض من أعراض حالة نفسية . فما يسبب الاضطراب فى جسم الأنثى هو فى جانب كبير منه ذلك الحصر النفسى الناشىء عن مجرد كونها أنثى !

وحينما يتبدى الموقف البيولوچى للمرأة باعتباره « عائقا » يحول دون تقدمها ، فانها فى هذه الحالة لا تستند الى أساس فسيولوچى محض ، بل هى تصدر فى هذا التصرف عن سلوك اجتماعى محض أو تقليد جمعى سائد . أما حينما يعامل المجتمع الفتاة كما يعامل الفتى ، وحينما تلقى المراهقة من التشجيع مثلما يلقى المراهق ، فان شـــيئا لا يمكن أن يعترض سبيلها باعتباره « عائقا » . بيد أننا فى العادة تتطلب من الفتاة أكثر مما تتطلب من الفتى ، لأن المجتمع لا يريد منها فقط أن تؤدى واجبهـــا كالرجل ، أو أن تنهض بأعباء مهنتها كالشاب ، وانما هو يريد منها أيضا أن تكون «امرأة» . وهكذا نجد مثلا أن الأم فى البيت تطلب الى فتاتها أن تساعدها فى أعمال التدبير المنزلى ، بينما هى قلما تطلب الى الولد شيئا من هذا القبيـــل . وان الأم لتحترم ابنها وتقدر المجهود الذى يقوم به فى سبيل أن يصبح رجلا ، بينما هى تفرض على فتاتها الكثير من القيود ، وتأبى أن تعترف لها بحق تكوين نفسها وتحديد مصيرها . وهكذا تجد الفتاة نفسها مضطرة الى ضبط نفسها والتحكم فى أعصابها ، ومن ثم فانها سرعان ما تفقد تلقائيتها الطبيعيـــة ، لكى تصبح فى حالة توتر

مستمر ، وسأم دائم ، وحياء زائد . وقد تزيد كل هذه العوامل من شعور الفتاة بضآلة شأنها ، فنراها تقبل على مضض وضعها « الشائن » باعتبارها مخلوقا قاصرا لا يملك حرية ، ولا يقوى على التصرف ! والواقع أن المجتمع لا يفرض على الفتاة أن تتجمل وتتزين فحسب ، بل هو يضطرها أيضا الى أن تحد من تلقائيتها ، وأن تستعيض عن أرجاعها الطبيعية برشاقة مصطنعة وجاذبية متكلفة ، تلقنها للفتاة شرذمة من النساء اللائى يقمن بتربيتها وتوجيهها !

واذا كانت نقطة البدء بالنسبة الى الشاب ليست من الصعوبة بمكان ، فذلك لأنه ليس ثمة تعارض بين رسالته باعتباره انسانا وبين واجبه باعتباره رجلا . وأما بالنسبة الى الفتاة ، فان الأمر على خلاف ذلك ، لأن ثمة هوة عميقة غير معبورة بين موقفها باعتبارها كائنا بشريا ، وبين رسالتها باعتبارها « امرأة » . وليس هذا التعارض وليد واقعة بيولوجية أو تكوين طبيعي ، بل هو وليد تحكم صناعى أريد به للمرأة أن تكون كائنا « ثانويا » لا يعترف له بالحرية او الاستقلال أو الفاعلية . وليس من شك فى أن أول مشكلة لابد من أن تصطدم بها المرأة فى مستهل حياتها هو شعورها بذلك التوتر الحاد بين الاستقلال الذى كانت تتمتع به ــ فتاة ــ ابان الطفولة ، وبين هذا « الخضوع » الذى أصبح مفروضا عليها باعتبارها « امرأة » . ولعل هذا هو السبب فى أن المرأة سرعان ماتنسحب من المجتمع ، فلا تعود

تحيا وجودها الخاص باعتبارها « ذاتا » ، توجد فى « الخارج » وتعمل مع الآخـرين ، بل تشرع فى اتخـاذ موقف « الاخر » (L' Autre) الذى يعرض نفســه على الرجل ، ويضع نفسه تحت أنظار الرجل ، ويعمد الى « التمثيل » حتى يجتذب الرجل ، ويصبح مجرد « موضوع » يحكم عليه الرجل !

الفصل الرابع

المرأة فى حياتها الزوجية

---

٢٦ ـ لن تتحدث عن مرحلة « الانتظار » لدى الفتاة ، ولن تتحدث عن « المناورات » المختلفة التى لابد من أن تقوم بها الفتاة ـ أو أهلوها ـ فى سبيل « الحصول » على « زوج » ، ولن تتحدث أيضا عن « مساومات » الزواج بما فيها أحيانا من مبادلة أو مقايضة ، وانما سنمضى مباشرة الى الحديث عن « المرأة المتزوجة » ، على اعتبار أن الفتاة مجعولة للزواج ، وأن نظام « الزواج » هو التبرير الاجتماعى الوحيد لكل وجودها ! والواقع أن « العانس » لا زالت محتقرة فى معظم المجتمعات ، لأن « الزواج » هو فى نظر الكثيرين طريقة المرأة الوحيدة فى كسب عيشها ، فضلا عن أن « الاشباع الجنسى » يكاد يكون محرما على الفتاة فى غير نطاق الزواج . وليس فى استطاعتنا بطبيعة الحال أن نعرض لدراسة المشكلات الاجتماعية المرتبطة بالزواج ، فذلك أمر يخرج بنا عن النطاق الضيق الذى حددناه لأنفسنا منذ البداية ، وانما حسبنا أن نقول إن معظم المجتمعات تنكر على

الفتاة فيما قبل الزواج حق اشباع غريزتها الجنسية ، بينما هى قد لاتجد حرجا فى أن يكتسب الشاب بعض التجارب الجنسية. وسواء أكانت هذه التفرقة وليدة نظرة بيولوجية لها اعتبارها ، أم كانت مترتبة على تمييز اجتماعى سابق على كل اعتبار آخر ، فان من المؤكد أن لهذه التفرقة أثرها فى انعدام « التكافؤ الجنسى » بين الرجل والمرأة فيما بعد الزواج . وان البعض ليذهب الى أن فى وسع الفتاة أن تضمن لنفسها « العفة » بجهد أيسر من الجهد الذى يحتاج اليه الشاب ، ولكن مثل هذه المزاعم لم تتأيد علميا بصفة قاطعة ، بل لا زال كثير من علماء النفس يأخذون بالرأى القائل بأنه ليس ثمة أى فارق جنسى أصيل بين الرجل والمرأة من حيث شدة الحافز الجنسى . ولكن هذا لا يمنعنا من القول بأنه لما كان للفعل الجنسى بالنسبة الى المرأة نتائج أخطر مما له بالنسبة الى الرجل ، فان من الطبيعى للفتاة أن تكون أكثر ترددا وأبطأ اختيارا من الشاب ، حينما يكون عليها أن تتخذ شريكا لها فى الحياة . واذا كان البعض قد زعم بأن الرجل يميل الى « التعدد » ، بينما المرأة تميل الى « الواحدية » — فى الزواج — فقد يكون فى وسعنا أن نقول ان كلا من الرجل والمرأة «واحدى» فى الزواج « Monogamic » « تعددى » فى « الحب » « Poly-erotic » . حقا ان بعض المجتمعات التى لا تقر « الحب » خارج نطاق « الزواج » ، قد أباحت نظام « تعدد » الزوجات ، ولكن من المؤكد أن الأخذ بنظام الزواج « الواحدى » لا يمنع الرجل والمرأة من

الاستجابة جنسيا لأى موضوع جديد للحب . ومعنى هذا أنه ليس ثمة فارق جنسى بين الرجل والمرأة من هذه الناحية .[١]

أما اذا نظرنا الى موقف « المرأة » بالنسبة الى « الزواج » فاننا سنجد أن « الزواج » يعنى فى نظر « المرأة » أكثر مما يعنى فى نظر « الرجل » . واذا كان الرجال فى العادة أكثر استعدادا من النساء للرضا بالزواج ، فذلك لأن المرأة تعلق الكثير من الآمال على الزواج ، بينما الرجل يتجه بالقسط الأكبر من اهتمامه نحو عمله خارج المنزل . والواقع أن البيت لا يشغل من وقت الرجل سوى جزء محدود ، بينما تكاد الحياة المنزلية أن تكون هى كل شىء فى نظر المرأة . ولما كانت المرأة تشعر بأن « الزواج » هو كل حياتها ، فان المشاكل التى تتولد عن حياتها الزوجية تنطوى فى نظرها على معانى أعمق مما تنطوى عليه فى نظر الرجل . ولعل هذا هو السبب فى أن نسبة عدد النساء الساخطات على الحياة الزوجية أكبر بكثير من نسبة عدد الأزواج الساخطين على تلك الحياة . حقا أن الزواج هو بالنسبة الى كل من الرجل والمرأة (على حد سواء) مشكلة نفسية واجتماعية خطيرة ، لأن على كل منهما أن يعمل على تحقيق ضرب من « التوافق » مع الشريك الآخر ؛ ومثل هذا التوافق لا يمكن فى العادة أن يتم الا ببطء شديد وتحت تأثير عوامل نفسية

(١) Cf. H. Ellis : "Psychology of Sex" London, W. Heinemann, 1944, PP. 242 — 3.

عديدة ، ولـــكن من المؤكد أن المرأة قد تلقى الـــكثير من الصعوبات فى سبيل تحقيق هذا « التوافق » ، بينما قد تزيد قدرة الرجل على « التكيف » عن نظيرتها لدى المرأة . وربما كان الفارق بين الزوجات اللائى تتوفر لديهن مثل هذه القدرة على « التكيف » ، وغيرهن من الزوجات اللائى لا ينجحن فى « التوافق » مع أزواجهن ، هو أن النوع الأول من الزوجات ذو نزعة موضوعية ، فضـــلا عن أنه لا يكترث كثيرا بضروب الصراع العقلى المختلفة ، ومن ثم فانه قد يقترب فى المتوسط من « الرجل » العادى ، بينما يتصف النوع الثانى بشـــخصية غير متكاملة عملت على تعقيدها عوامل نفسية عديدة ابان الطفولة أو المراهقة .

واذا كانت الاحصـــائيات قد دلتنا على أن عـــدد الزوجات الراضيات عن « الزواج » أقل بكثير من عدد الأزواج ، فذلك أن المرأة كثيرا ما تصاب بخيبة أمل شديدة حينما تتحقق من أن « المثل الأعلى » الذى كانت قد تصورته فى مخيلتها للرجل لا يكاد يتطابق مع الحقيقة الواقعة . وقبل أن تتحدث عن مشاكل المرأة بعد الزواج ، نرى لزاما علينا أن نشير الى هذه الحقيقة الهامة ألا وهى أن الفتـــاة ترغب فى الزواج وترهبه ، فهى لا تقـــدم على الزواج الا وفى نفسها الكثير من الهواجس والاضطرابات . ولا يرجع خوف الفتـــاة من الزواج الى مجرد كونها مضـــطرة الى الانفصال عن ماضيها ، وقطع علاقتها بطفولتها وشبابها وصديقاتها وذويها ، وانما قد يكون مرجع الجانب الأكبر من هذا الخوف

الى نوع الحياة الجديدة التى تنتظرها ، وطبيعة تلك التبعات والتكاليف التى سيكون عليها أن تتحملها . وحينما تكون الفتاة صغيرة السن ، فانها قد تشعر بحاجتها الى استشارة أمها ، والرجوع الى ذويها ، أو قد تجد فى زوجها شخصا « غريبا » لا يعوضها عن والدها . فاذا أضفنا الى ذلك أن تربية الفتاة الدينية قد تصور لها الحياة الجنسية بصورة حيوانية ، فتظل تعانى الكثير من المخاوف لشعورها بأن مجرد الاستمتاع بالعملية الجنسية هو اثم منكر ، أمكننا أن تتصور لماذا كان « تكيف » المرأة مع الحياة الزوجية عملية نفسية عسيرة . وقد يحدث أحيانا أن تظن الفتاة أن « الفعل الجنسى » هو من جانبها مجرد « خدمة » تؤديها للرجل ، فسرعان مايحول هذا الشعور بينها وبين « المتعة الجنسية » ، خصوصا اذا لم يوفق الزوج فى أن يحقق لزوجه المتعة التى يحققها لنفسه . هذا الى أن زواج الفتاة قد لايكون وليد « حب » أو « علاقة عاطفية » ، بل قد يكون مجرد « صفقة تجارية » ، أو لمجرد التخلص من « العزوبة » ، أو على سبيل كسب العيش بطريقة شريفة !

٢٧ ــ أما بخصوص المشاكل النفسية التى قد تترتب على أول علاقة جنسية ، فان من المعروف أن لباقة الرجل تلعب دورا كبيرا فى كل حياة المرأة الجنسية فى المستقبل . وقد روى لنا اشتيكل (Stekel) أن « البرود الجنسى » (Frigidité) الذى قد تصاب به النساء ، كثيرا ما يكون وليد « أنانية » الرجل ، واندفاعه الى اشباع رغبته الجنسية على حساب آلام المرأة فى

الليلة الأولى للزواج . وحينما يكون الرجل أخرق ، فقد تتولد لدى المرأة « عقدة نقص » تنضاف اليها أعراض « عصـــاب » مزمن ، اذ تشعر المرأة بأنها ليست كباقى النساء ، أو أن تكوينها غير طبيعى ... الخ . ولكن كما أن المرأة قد تحقد على الرجل الذى يفض بكارتها بعنف ، دون مراعاة لآلامها ، فانها قد تحتقر الرجل الأخرق الذى يقضى ليلة الزفاف فى محاولات يائسة دون أن ينجح فى فض بكارتها . وقد روت احدى الباحثات أن بعض الأزواج الخرقى قد يهيب بالطبيب من أجل مساعدته على فض بكارة زوجته ، بدعوى أن غشاء بكارتها غير طبيعى، ولكن هذا العذر قلما يكون قائما على أساس . وفى مثل هذه الحالات كثيرا ما يتعرض الزوج لاحتقار دائم من جانب زوجتـــه ، فتتعرض « رجولته » لمحنة قاسية ، اذ تشعر زوجته بأن ليس لديه من القوة والشجاعه ما يؤهله للظفر بتقديرها واحترامها . وحتى اذا ما كان تصرف الزوج هو وليد رغبته الصادقة فى تجنب مقاومتها وعدم تعريضها للألم الشـــديد ، فقد يكون هذا التصرف من جانبه مدعاة لاثارة مشاعر الحقد والغضب لديها ، نظرا لأنه لم ينجح فى اشـــباع رغبتها المازوشـــية العميقة فى أن تغلب على أمرها ! [1]

واذا كان للاتصـــال الجنسى الذى يتم لأول مرة بين الزوج

---

(1) Cf. Deutsch : "Psychology of Women", Vol. II., PP. 82 — 83.

والزوجة أهمية كبرى فى حياة المرأة ، فذلك لأن المجتمع يحيط « ليلة الزفاف » فى العادة بهالة عجيبة من السحر والتقديس . وكثيرا ما يستولى الفزع على قلب الفتاة حينما تعلم أنها مقبلة على تجربة هامة تحترمها الأسرة ، ويقدسها الدين ، ويحيطها المجتمع بالكثير من الرسميات ؛ فاذا مااختلى العروسان أحدهما بالآخر ، استحال هذا التقديس الى « عملية » أليمة قد لا تخلو من صراع وعنف وألم ! ولا ريب أن هذا التناقض الصارخ بين « الطقس الدينى » و « الفعل الحيوانى » هو الذى يولد فى نفس الفتاة السخط على المجتمع بريائه وكذبه ، والثورة على زوجها لاندفاعه وحيوانيته ! ولعل هذا هو السبب فى أن كثيرا من الفتيات قد يحتفظن لليلة الزفاف بأسوأ الذكريات ، خصوصا اذا كانت الزوجة لم تتلق من « التربية الجنسية » ماتستطيع معه أن تسهل للزوج مهمته الشاقة . وعلى كل حال ، فان كل فشل يلقاه الزوجان فى ليلة اتصالهما الجنسى لأول مرة ، انما تعود تبعته على الزوج والزوجة معا ، لأنه ليس من شك فى أن انعدام خبرة الزوج من جهة ، وجهل الزوجة بما فى الاتصال الجنسى من مجهود فسيولوچى وسيكولوچى معا من جهة أخرى ، هما المسئولان أولا وأخيرا عن تحول « الاتصال الجنسى » الى واجب شاق . وربما كانت الصعوبة فى دور الرجل براجعة الى أنه فى حاجة الى أن يمزج القوة باللطف ، وأن يتغلب على مقاومة المرأة بالرفق ، وأن يستعمل معها الأدب والذوق دون أن ينسيه الاحترام حرارة الحب ! ونحن نعلم أن موقف المرأة فى العادة

خليط من المتناقضــات : فهى تريد ولا تريد ، وهى ترغب ولا ترغب ، وهى تقــاوم ولكنها لا تلبث أن تستسلم . وكل هذه انعوامل النفسية المتناقضة تزيد من صعوبة مهمة الرجل، وتجعل « اللباقة » شرطا أساسيا للزوج الناجح . أما اذا أعمت الرجل شهوته ، فاندفع الى تحقيق رغبته ، دون مراعاة لنفسية شريكته ، لم تلبث « العملية » الجنسية أن تصبح فى نظر الزوجة « واجبا » شاقا تقدم على أدائه لمجرد ارضاء زوجها ! ١

٢٨ ــ حقا ان الزواج شىء أكثر من مجرد « رابطةجنسية » ، ولكن أحدا لم يعد يستطيع اليوم أن ينكر قيمة العامل الجنسى فى كل زواج موفق . وعلى الرغم من أن التــوافق الجنسى بين الزوجين هو عملية معقدة تستلزم الكثير من الجهد والوقت ، الا أنه قد يكون من الخطأ أن نظن أن عامل « الزمن » وحــده هو الكفيل بتحقيق مثل هذا التوافق . وآية ذلك أن هناك زوجات قد أنجبن أولادا وبنات ، دون أن تعرف الواحدة منهن معنى « النشوة » الجنســية ! والواقع أن « ايقاع » الحياة الجنسية لدى المرأة قد يختلف عنه لدى الرجل ، نظرا لارتباط المتعة عند الرجل بظاهرة بيولوجية محددة (هى القذف) ، بينما تظل المتعة الجنسية عند المرأة ظاهرة سيكولوجية معقدة بطيئة . ولعل هذا هو السبب فى أن للجماع عند الرجل بداية ونهاية ، بينما هو

---

(١) Simone de Beauvoir: "Le Deuxième Sexe", Vol. II., PP. 220 — 221.

عند المرأة عملية نفسية ليس لها بداية محددة ، وقلما تنتهى بشكل حاسم واضح المعالم . وقد يخطىء الرجل حينما يحاول أن يفرض على المرأة ايقاعه الجنسى المحدد ، لأنه عندئذ انما يحطم تلك الدائرة السحرية العجيبة التى تتحقق فى داخلها المتعة الجنسية المعهودة لدى المرأة . واذن فان اشباع الحاجة الجنسية لدى المرأة ليس مجرد مجهود « صناعى » يستلزم من الرجل تحقيق التوافق بين ايقاعين مختلفين ، وانما نحن هنا بصدد عملية معقدة تجعل حياة المرأة الجنسية مشروطة بالموقف العام ككل . وان الرجل ليتصور العملية الجنسية أحيانا على أنها صراع يقوم فيه بدور البطل ، ولكن المرأة لا تريد دائما العنف والقوة ، بل هى كثيرا ما تشعر بالحاجة الى العطف والرقة . واذا كانت أكبر البواعث الجنسية استثارة لدى المرأة هى الملامسة والملاطفة وضروب المداعبة ، فذلك لأنها فى العادة تنتظر من الرجل أن يشيع فى كل جسدها تلك الحاجة الغامضة الى الاستسلام ، بدلا من أن يحصر كل همه فى اقتحام « قلعتها » الصغيرة فى عنف وقسوة وايلام ! اننا لا ننكر أن « المازوشية » تلعب دورا كبيرا فى حياة المرأة الجنسية ، ولكننا نعتقد أنه اذا لم ينجح الزوج فى أن يمنح زوجته ما تحتاج اليه من حب ورقة وحنان ، فانها لن تستجيب مطلقا لسائر المهيجات الجنسية . وليس يكفى أن نقول مع بلزاك « ان المرأة قيثارة لا تبوح بأسرارها الا لمن يعرف كيف يعزف على أوتارها » ، وانما يجب أن نضيف الى ذلك أن المرأة لا تستجيب الا لذلك الزوج الذى يأخذ بيدها فى دعة ورفق لكى يسلمها

الى أحضان « النشوة الجنسية » حيث تختلط معانى العناق بين الزوج والزوجة بمعانى الحنان بين الأم والطفلة !

أما القول بأن النساء أقل رغبة فى الجماع من الرجال ، أو أن « البرود » الجنسى ظاهرة أكثر انتشارا بين النســاء منها لدى الرجال ، أو أن الحافز الجنسى لدى المرأة أضعف منه عموما لدى الرجل ، فان هذه كلها مزاعم قد لا يصح الأخذ بها فى معرض المقارنة بين الرجل والمرأة . حقا ان الكثير من علماء النفس قد اهتموا بدراسة ظاهرة « البرود الجنسى » (Frigidité) لدى المرأة ، ولكن هؤلاء قد لاحظوا أنه قلما توجـد نساء مجردات تماما من كل رغبة جنسية ، بحكم تكوينهن البيولوچى والعصبى. وكثيرا مايكون الأصل فى « البرود الجنسى » هو الكبت النفسى الناشىء عن التربية الدينية أو الأخلاقية ، خصوصا فى البلاد المحافظة حيث لازال « الاتصال الجنسى » يصور للمرأة بصورة الاثم أو الخطيئــة . وقد يرتبط « البرود الجنسى » لدى المرأة بذكريات سيئة ارتبطت بفض بكارتهــا ، أو قد يكون وليـد شعورها بالخوف من « الحمل » . ولا شك أنه حينما تجد المرأة نفسها محاصرة بشبح الخوف من الحمل ، فانها لابد من أن تقوم برد فعل دفاعى ضد عملية الاتصال الجنسى . وقد يكون السبب فى البرود الجنسى أحيانا هو أن الرجل قد اعتاد أن يوقظ الرغبة الجنسية لدى المرأة ، لكى لا يلبث أن يتركهـا دون أن يشبع لديها تلك الرغبة ، وتبعا لذلك فان المرأة لا تلبث أن ترتمى فى أحضان « البرود الجنسى » ملتمسة لديه أداة دفاع ضد زوجها،

فلا تعود تسمح لغريزتها بأن تتيقظ دون اشباع . ومعنى هذا أن السبب فى « برود » المرأة جنسيا قد يكون مرجعه الى الرجل، لا الى المرأة . [1]

ولسنا نريد أن نسترسل فى دراســة هذه الظاهرة ، ولكن حسبنا أن نلفت النظر أولا وبالذات الى ضرورة التفرقة بين وجود « الليبدو » (Libido) لدى المرأة ، وبين وجود المتعة الجنسية أثناء الجماع : فقد يوجد لدى المرأة الأول منهما دون الثانى ، وقد ينعدم كلاهما دون أن يكون فى الوسع وصف تلك المرأة بأنها عديمة الاحساس الجنسى تماما . وقد لاحظ بعض الباحثين أن نسبة كبيرة من النساء اللائى تضعف لديهن القدرة على بلوغ « المتعة » الجنســية التامة ، هن فى الوقت نفســه ذوات رغبة جنسية تفوق المتوسط . وقد يحدث أحيانا أن تظل المرأة « باردة » جنسيا مع طائفة من الرجال ، لكى لا يلبث الدافع الجنسى أن يتولد لديها أخيرا ، بعد أن تكون قد تجاوزت العقد المتوسط من عمرها . وهناك حالات لا تعرف فيها المرأة « اللذة الجنسية » عن طريق الاتصال الجنسى ، بل تكون المتعة عنـدها مرتبطة ببعض مناطق الحساسية الجنسية المنتشرة على سطح جسمها . وقد تحاول المرأة أحيانا أن تتخذ من « البرود الجنسى » أداة عقوبة تفرضها على نفسها أو على زوجها حتى تنتقم لنفسها من

---

(1) Cf. H. Ellis: "Psychology of sex", 9 th ed., 1944, Ch. VI, PP. 263 — 264.

نفسها أو من زوجها ، ولكن هذا « البرود » المصطنع كثيرا ما ينطوى على ضرب من خداع النفس أو سوء الطوية .

وكثيرا ماتلتجىء المرأة فى علاقتها الجنسية بالرجل الى أساليب ملتوية ، فنراها مثلا تتصور أن فى الاستجابة لرغبة زوجها الجنسية ما ينتقص من كرامتها ، وعندئذ قد تعمد الى النيل من كرامته فى صميم رجولته ، بأن تشعره بأنها لا تجد أية لذة فى الاتصال به ، أو بأن تحاول بكافة الطرق استثارة غيرته ، أو بأن تنتهز كل فرصة لابداء اعجابها بغيره من الرجال . وقد يمنعها الحذر من أن تمضى فى هذا السبيل الى غايته ، فنراها تقتصر على مصارحة صديقاتها ببرودها الجنسى ، أو قد تكتفى بكتابة مذكرات تعترف فيها بأنها لم تعرف اللذة يوما فى فراش الزوجية ! وهناك نساء كثيرات متزوجات يجدن لذة كبرى فى أن يفضين الى صديقاتهن بأسرارهن الجنسية ، وكيف أنهن يبدين للرجل أمارات اللذة والاستمتاع . بينما هن لا يجدن فى الاتصال به أدنى متعة ! وقد تنتهز النساء هذه الفرصة للسخرية من الرجل ، وخلع صفات السذاجة والغرور عليه ، وكثيرا ما تعلو صيحات الاستهزاء بين هؤلاء النسوة حينما تتفنن الواحدة منهن فى وصف زوجها المخدوع الساذج المغرور ! ولكن الملاحظ أن هذه « الاعترافات » نفسها كثيرا ما تكون مجرد « تمثيلية » أخرى تخدع بها المرأة نفسها ، اذ شتان بين البرود الجنسى ومجرد الرغبة الارادية فى التسلح بمثل هذا البرود ! وهناك حالات أخرى ـ ولكنها أقل حدوثا ـ تحاول فيها المرأة أن تقتص لنفسها من

امتياز الرجل العقلى ، بأن تفرض عليه بالليل معاييرها الجنسية ، فتحاول أن تعوض شعورها بالنقص ، بأن تشعر زوجها بأنه أعجز من أن يشبع غريزتها ، أو أن ينهض بوظيفته الزوجية على الوجه الأكمل !

٢٩ — وقد يكون من الطريف أحيانا أن يعمد الباحث النفسى الى دراسة حالات « الخيانة الزوجية » التى كثيرا ما تؤدى الى « الطلاق » . وهنا نجد أن خيانة المرأة لزوجها قد تكون أحيانا وليدة الاحتجاج والتمرد ، لا سعيا وراء الحب واللذة . وقد تتوهم أحيانا أن تمتع المرأة بالحرية هو المسئول عن تلك « الاباحية » التى قد تدفع بها الى « الخيانة » ، ولكن المشاهد عادة أن ثورة المرأة على حالتها الاجتماعية (حينما تجد نفسها أسيرة للرجل) ، هى المسئولة عن التجائها الى « الخيانة » باعتبارها سلاحا تطعن به الرجل . وحسبنا أن نرجع الى ماروا‌ه المستشرق الانجليزى وليم لين فى كتابه المشهور عن « المصريين المحدثين ، شمائلهم وعاداتهم فى النصف الأول من القرن التاسع عشر » عن كيد المصريات وأساليبهن فى خيانة أزواجهن ، حتى نتحقق من أن نظام « الحريم » لم يحل بين المرأة وبين الانتقام من زوجها بالخيانة . حقا ان هناك أسبابا أخرى عديدة للخيانة الزوجية ، فانه لمن المعروف أن امكانيات المرأة الشبقية Érotique تكاد تكون غير محدودة ، فضلا عن أن انعدام التوافق الجنسى قد يدفع بالمرأة الى السعى وراء تلك « النشوة » الجنسية التى لم تستطع أن تظفر بها فى صحبة زوجها ، ولكن من المؤكد أن

للزواج الفاشل أسبابا أخرى قد تكون أعمق من ذلك بكثير وآية ذلك أن الجاذبية الجنسية نفسها قد تنعدم ، حينما تصبح العلاقة الزوجية قائمة على العداء ، والاشمئزاز ، وانعدام الاكتراث. وان المرأة لتعلق الآمال الكبار على الزواج ، فاذا ما وجدت نفسها غارقة فى محيط مظلم من السأم والألم والانتظار وخيبة الأمل ، فان ثورتها على « الزواج » سرعان ماتتحول الى « الزوج » نفسه . وحينما تعجز المرأة عن حل مشكلتها بالدموع والشكاة والمشاجرة ، فقد تلتجىء الى سلاح « الغيرة » ، أو قد تعمد الى تحطيم « عشها » نفسه (فوق رأسها ورأس زوجها معا !) وليس من شك فى أن كل مشاكل الزواج انما ترجع الى أن الزوجين كثيرا ما ينسيان أن « الزواج » قطعة مصغرة من الحياة ، وأنه بالتالى لا بد من أن ينطوى على ما فى الحياة من صعوبات وعوائق وتعقيدات . وليست صعوبة الزواج براجعة الى أنه وظيفة « غرامية » ووظيفة « اجتماعية » معا ، وانما الصعوبة الكبرى فى هذا النظام هى أنه عملية « توافق » أو « تكيف » ، ومن ثم فانه ليس « منحة » ، بل « كسبا » بطيئا يتم بتضافر الكثير من الجهود . [1]

أما حينما يعمد الزوجان الى حل مشكلتهما بالطلاق ، فانهما انما يعبران بذلك عن فشلهما التام فى تحقيق هذا « التوافق »

---

(1) ارجع الى كتاب « سيكولوجية الجنس » للدكتور يوسف مراد ، الفصل الثالث « الحب ومشكلات الزواج » ص ٦٧ - ١٣٦ .

أو « التكيف » . وفى هذه الحالة قد تكون أسباب الطلاق هى بعينها أسباب « انعدام التكامل فى الشخصية » .[1] ولا نرانا فى حاجة الى القول بأن الأشخاص الذين يقدمون على الطلاق ، ظنا منهم بأن فيه علاجا لمشكلتهم ، كثيرا ما يصابون بخيبة أمل جديدة فى زواجهم الثانى . وهنا قد تشتد حملتهم على «النساء»، أو قد يحملون على « الزواج » نفسه باعتباره نظاما اجتماعيا فاشلا ، بينما « الفشل » فى الحقيقة كامن فيهم هم ، لا فى نظام الزواج نفسه ! وليس فى استطاعتنا بطبيعة الحال أن نأتى هنا على الأساليب العملية لعلاج مثل هذا الفشل ، ولكن حسبنا أن نقول ان « التوافق » المنشود بين الزوجين لابد من أن يتم فى ميادين ثلاثة : ميدان العلاقات الجنسية ، وميدان العلاقات النفسية، وميدان العلاقات الترابطية (Associational Relationships) التى تتم فى الحياة الجمعية المشتركة . وحينما يقع فى ظن الرجل أن كل علاقته بزوجته لا يجب أن تتعدى الميدان الأول ، أو حينما يتوهم أن زوجته ليست سوى وسيلة للمتعة الجنسية ، فانه عندئذ يضحى بقطبين هامين من أقطاب الزواج فى سبيل قطب واحد فقط . وحينما يفهم الزوج أن « فن الحب » هو ثمرة خبرة سيكولوجية طويلة ، وأن التوافق الزوجى لا يمكن أن يتم بين عشية وضحاها ، فانه قد يأخذ بيد زوجه فى سبيل مساعدتها

(1) ارجع الى مقالنا « العوامل المؤدية الى انعدام التكامل فى الشخصية » : مجلة علم النفس ، المجلد ٣ ، عدد ٢١ يونيه سنة ١٩٤٧ ، ص ١٠٧ – ١١٢ .

على الوصول بحياتهما الزوجية الى مستوى « التناغم » الجنسى، والنفسى ، والاجتماعى . ولعل هذا هو ما عناه أحد الباحثين حينما قال « ان الزواج السيكولوچى ، أعنى الزواج باعتباره علاقة شخصية ابداعية ، هو « كسب » يحصله شريكان، وليس بالضرورة حالة يجدها الزوجان ليلة الزفاف » . [١]

٣٠ ــ أما اذا عدنا الى موقف المرأة من الزواج ، فاننا سنجد أن حملات كثيرة قد وجهت من جانب النساء ، الى هذا النظام الاجتماعى . وسواء أكانت هذه الحملات هى وليدة « عقدة الذكورة » ، أم كانت مجرد تعبير عن رغبة الكثيرات فى التحرر من تبعات الزوج ، أم كانت مجرد تقرير لحقيقة واقعة هى سأم المرأة من الحياة المنزلية ، فان من المؤكد فى نظرنا أن « الزواج » ليس نظاما اجتماعيا فاشلا ، كما تزعم سيمون دى بوڤوار . ولسنا ندرى كيف تزعم هذه الكاتبة أن « الزواج » يقضى على شخصية المرأة ، ويحيلها الى مجرد كائن تافه عديم الأهمية ، بينما هى تعترف بأن اكتمال نمو المرأة الجسمى والنفسى لا يتم الا بالأمومة . أما الزعم بأن الزواج يقتل الحب ، وأن من الواجب أن نسمح للمرأة بأن تفصل بين حياتها الزوجية وحياتها الجنسية ، فهذا قول أقل ما يقال فيه انه يهدم نظام الأسرة من أساسه ، وأنه يغلب مصلحة الفرد على مصلحة النوع . ولسنا نزعم أن

---

(١) Cf. Havblock Ellis : "Psychology of Sex", 9 th. Ed. 1944, PP. 234 & 235 — 236.

المرأة هى مجرد خادمة للنوع ، ولكننا نعتقد أنه قد يكون من الخطأ أن نضحى بالطفل على مذبح الحرية الجنسية النسوية أما ما تقوله سيمون دى بوڤوار من أن « الزواج » لا زال هو « المستقبل » الوحيد الذى ينتظر المرأة ، وأن علاج هذه الحال لا يكون الا بمنح النساء حرية اقتصادية ، وجنسية ، تجعلهن على قدم المساواة مع الرجال ، فاننا نعتقد أن قبول مثل هذا الوضع قد يؤدى الى مشكلات اجتماعية أخرى ربما كانت أكثر خطورة من الحالة الراهنة نفسها . وحينما ينسى أصحاب هذا الرأى ما لدى المرأة من نزعات نرجسية ومازوشية ، فانهم يعبرون عن « نزعة عدوانية » تنأى بهم عن « الأنوثة » الكاملة . والا ، فكيف جاز لسيمون دى بوڤوار أن تقول ان الزوجة تريد أن تشارك زوجها حياته الزوجية ، وأن تشترك معه فى خلق عش سعيد ، وتربية أولاد صالحين ، ولكنها فى الوقت نفسه تريد أن تتذوق ضروبا أخرى من العناق ؟ ! ألا تعرف هذه الكاتبة أن الطبيعة نفسها قد ربطت بين المتعة الجنسية والوظيفة التناسلية ، بحيث أن كل فصل يقام بينهما لابد من أن يكون على حساب « الأمومة » وكرامة الحياة الزوجية نفسها ؟

ولكن ما هى الأسباب الحقيقية لثورة النساء على الحياة الزوجية ؟ اننا لو رجعنا الى مايقوله دعاة حركة التحرير النسوى فى تعديد مساوىء الحياة الزوجية ، لوجدنا أن كل هذه الثورة [illegible] هى مجرد تعبير عن ضيق المرأة بحياة المنزل وسخطها على تبعات الزوجية . وقد أسهبت سيمون دى بوڤوار

فى وصف ما تنطوى عليه هذه الحياة المملة الشاقة من سأم ورتابة وتفاهة ، كما أفاضت فى الحـــديث عن انخفاض مستوى المرأة العقلى والاجتماعى بسبب انحصارها فى دائرة ضيقة لا تعدو أعمال التوبير المنزلى والحياكة والطبخ والتعامل مع الأطفـــال والخدم ! ونحن لا ننكر أن هذه الكاتبة هى على حق حينما تدعو المرأة الى استبقاء صلتها بالعالم الخارجى ، وتوثيق عرى الصلات بينها وبين مايدور فى المجتمع من حركات فكرية وثقافية ، ولكننا لا نفهم معنى لهذه الثورة الجامحة على نظام « الأسرة » ، فى حين أن أجمل ما تحلم به كل امرأة سوية لا تعرف الشذوذ هو أن تكون أما صـــالحة . وحتى اذا لم نســـلم مع بعض الباحثـــين النفسانيين بأن معظم نشاط المرأة موجه فى العادة نحو الداخل (لا الخارج) ، فاننـــا لا بد من أن نعترف بأن حـــلم « البيت السعيد » أو « العش الهانىء » هو حلم طبيعى يراود كل فتاة . ونحن لا نعنى بذلك أن يكون كل هم المرأة هو توديع زوجها فى الصباح ، وتمضية نهارها فى السأم والانتظار ، أو فى العمل الشاق الرتيب ، وانما نحن نعنى أن كل عمل تنهض به المرأة فى الخارج لايمكن أن يعوضها هناءة « البيت السعيد » . واذا كانت مطالب الحياة الجمعية الحديثة قد اقتضت أن تنزل المرأة الى ميدان العمل ، وأن تشترك مع الرجل على قدم المساواة فى النهوض بأعباء المجتمع ، فان هذا النشاط الخارجى المحمود قد لا يشبع حاجة المرأة الى الاستقرار المنشود . ولسنا ندرى الى أى حد يمكن أن تنجح المرأة فى التوفيق بين الحافزين ، ولكننا نعتقد أن

هذا النجاح رهن بظروف كثيرة ، فضلا عن أنه مشروط بالطراز المعين الذى تنتسب اليه هذه المرأة أو تلك . وليس من شك فى أن هناك نساء « مسترجلات » يجدن لذة كبرى فى القيام بنشاط خارجى ، بينما يضعف لديهن الحافز النسوى الذى يملى عليهن القيام بنشاط داخلى. ولكننا قد لا نعدم لدى مثل هؤلاء النساء بعض الميول الأنثوية التى تتجلى فى مناسبات معينة ، خصوصا حينما يطلب الى الواحـــدة منهن الاشراف على تربية طفل أو يتيم .

أما القول بأن المرأة تعيش فى هم مقيم ، وأن حيـــاتها هى سلسلة من « الانتظارات » (Attentes) : اذ هى تنتظر الحب ، وتنتظر الزواج ، وتنتظر ولادة الطفل ، وتنتظر من الرجل أسباب حياتها ومبررات وجودها ، فهو فى نظرنا اغراق ليس له مبرر ، ومبالغة يراد بها تشويه صورة « الحياة الزوجية » . واذا كان « السأم » قد يسيطر على حياة المرأة ، فانه قد يسيطر أيضا على حياة الرجل ، لأن « الزمان » بما فيه من صيرورة ورتابة وتكرار ، هو الذى قد يجعل من « السأم » جزءا لا يتجـــزأ من صميم وجودنا البشرى . ولكن علينا وحدنا يتوقف القضاء على هذا السأم ؛ وهذا أمر تعرفه المرأة حق المعرفة ، فهى من ثم تحاول جاهدة أن تخلق فيمـــا حولها جوا مناسبا من الجدة والتغيـــير والمفاجآت ! ولو كانت كل حياة المرأة ــ كما يزعم البعض ــ محصورة بين السعى من أجل الحصول على الزوج ، ثم العمل من بعد على استبقائه ، لكانت بالفعل جحيما لا يطاق ! ولكن

المرأة ـ لحسن الحظ ـ تعلم أن دورها في الحياة ليس سلبيا الى هذا الحد ، وهى تعرف أن وظيفة الأمومة قد لا تقل شأنا عن أية مهمة أخرى ينهض بها الرجل ، ثم هى تؤمن فى قرارة نفسها بأن مصيرها ليس بهذه القسوة التى قد يحلو للبعض أن يتصورها !

حقا انه قد يكون من الخطأ أن نفسر كل سلوك المرأة بالنظر الى وظيفتها التناسلية ، فان المرأة ليست مجرد « أنثى » ، وانما هى أولا وبالذات « كائن بشرى » ، ولكننا نعتقد أن ثورة بعض النساء على كلمة « أنثى » ، هى مجرد أثر من آثار تلك النظرة القديمة الى الجنس ، وهى النظرة التى تجعل من الصلة بين الجنسين صلة « تفضيل » لا « تكميل » .

الفصل الخامس

المرأة فى دور الأمومة

---

٣١ ـ اذا رجعنا الى التجارب الكثيرة التى قام باجرائها بعض علماء النفس على الحيوانات ، لمعرفة مدة قوة الدوافع لديها ، وجدنا أن « الأمومة » هى أقوى الدوافع الحيوانية عموما . وقد استخدمت بعض الأجهزة العلمية الدقيقة لمعرفة ترتيب الدوافع (لدى الفئران) ، فوجد أن دافع الأمومة أقوى من العطش والجوع والحاجة الى الجنس وحب الاستطلاع[1] . وليس من شك فى أن دافع الأمومة الذى يربط الأم بصغارها منذ البداية ، هو دافع غرزى وثيق الصلة ببعض الحاجات العضوية والضرورات الفسيولوچية . وآية ذلك أن الأم تظل متعلقة بأبنائها طالما كانوا صغارا ، وطالما كانوا فى حاجة الى رعايتها . ولكن بمجرد ما يصبح الحيوان الصغير قادرا على الاستقلال عن أمه ، والنهوض بحاجاته الخاصة ، فان دافع الأمومة سرعان مايضعف ،

---

(١) ارجع الى كتاب « ميادين علم النفس » الجزء الأول ، دار المعارف ، سنة ١٩٥٥ (تحت اشراف الدكتور يوسف مراد) ص ٨٢ ـ ٨٣ .

لكى لا يلبث أن يزول تماما . وقد تختلف مظاهر « الأمومة » باختلاف الفصيلة التى ينتسب اليها الحيوان ، ولكن الملاحظ عموما أن دافع « الأمومة » عند الحيوان هو مجرد مظهر غرزى حيوانى يعبر عن عملية فسيولوجية محددة . وأما لدى الانسان ، فان دافع « الأمومة » هو الى حد كبير عملية سيكولوجية ترتبط بالكثير من الأرجاع الانفعالية التى لا تخلو من تعقيد . وليس بين الدافعين من تشابه سوى أن كلا منهما فى خدمة الوظيفة التناسلية أو وظيفة التكاثر . ومع ذلك ، فان تحول « غريزة » الأمومة الى « عاطفة » أو « حب » هو أمر قد لا نعدم له نظيرا — فى الظاهر على الأقل — لدى بعض الأنواع الحيوانية. ولعل هذا هو السر فى أن بعض الأفعال الغرزية التى يقوم بها الحيوان قد تتخذ « طابعا عاطفيا » يقربها الى حد ما من مظاهر السلوك الانسانى . ولكن مهما يكن من شىء ، فان التجارب قد دلتنا على أن سلوك الأم — فى المجال الحيوانى — متوقف على بعض العمليات الهرمونية ، ولا زالت المحاولات تبذل — فى المجال الانسانى — لتحديد مثل هذه العلاقة بدقة لدى أنثى الانسان[1] .

بيد أنه قد يكون من الصعب فى الوقت الحاضر أن نبين الى أى حد يصدر ذلك الموقف الانسانى المعقد الذى نسميه

---

(1) Cf. H. Deutsch ; "Psychology of Women" Vol. II., Ch. I., PP. 13 — 14.

بالأمومة (Motherliness) عن مجرد عامل بيولوچى محض .
حقا ان الأصل فى « الأمومة » هو بلا شك حالة فسيولوچية
خاصة ، ولكن من المؤكد أن هناك عوامل غير وراثية (ذات
طابع تعددى مرن) لم تلبث أن انضافت الى العامل البيولوجى ؛
وهكذا أصبح « حب الأم » مزيجا من عناصر بيولوچية ،
واجتماعية، وحضارية، كما عملت تجارب الأفراد عملها فى صميم
تلك « العاطفة » فاستحالت الى مركب وجدانى غاية فى التعقيد
وانه لمن الواضح أن تلك العلاقة الأولية التى تقوم بين «الأم»
و « طفلها » هى التى حدت بالبعض الى القول بأن أصل
« الأسرة » البشرية هو هذا « المجتمع » البيولوچى الصغير .
هذا الى أن العواطف الجمعية ، ومدى قدرة الفرد فى مجتمعنا
الحالى على التوافق الاجتماعى ، انما تتوقف على علاقة الطفل
الأولى بأمه . وحتى اذا نجح الباحثون يوما فى البرهنة على أن
« الأمومة » هى وليدة مجموعة من الشروط الهرمونية ،
والفسيولوچية ، والغرزية ، فان هذه الحقيقة لن تؤثر على
وجهة نظرنا السيكولوچية الى « الأمومة » . والواقع أننا هنا
بصدد ظاهرة انسانية معقدة : لأننا بازاء عمليات فسيولوچية
تقبل الملاحظة المباشرة ، وعمليات بيولوچية تخضع لقوانين
الوراثة والتكيف ، وعوامل أخرى عقلية ولا عقلية ، تاريخية
جمعية وسيكولوچية فردية... الخ . وكل هذه العناصر تشترك
جميعا فى تكوين تلك الظاهرة المعقدة التى سيكون علينا أن
نعمد الى اماطة اللثام عنها بالالتجاء الى التحليل النفسى .

لقد سبق لنا أن قلنا ان ما يميز « المرأة » المؤنثة هو وجود ضرب من الانسجام أو التوازن لديها بين الميول النرجسية والاستعدادات المازوشية . وليس من تعارض بين النزعة النرجسية لدى المرأة وبين عاطفة الأمومة ، لأن هذه النزعة سرعان ماتخضع لضرب من « التحويل » ، فتنتقل من « الأنا » الى « الطفل » (أو بديله) . ولكن يجب أن نلاحظ أنه على الرغم من هذا التحول الغيرى – أو الايثارى – فان العناصر النرجسية تظل قائمة ، لأنه كثيرا ما يرتبط حب الأم لطفلها بواقعة هامة هى أن الأم تعد نفسها لازمة لزوما ضروريا لحياة الطفل . وقد تضعف شدة الحب لدى الأم النرجسية ، حينما يصبح أبناؤها فى غير ما حاجة اليها . ولكن الملاحظ عادة أن الأم النرجسية كثيرا ما تضيق ذرعا بقسوة البيئة على أبنائها ، فضلا عن أنها كثيرا ما تطلب الى القدر أن يرفق بطفلها وأن يجنبه سائر العوائق العادية التى يصطدم بها الناس . وأما العناصر المازوشية فى « الأمومة » فانها تتجلى على وجه الخصوص فى استعداد الأم للتضحية بنفسها ، دون أن تنتظر عوضا أو مكافأة من جانب الطفل ، مع قبولها فى الوقت نفسه لتحمل الآلام فى سبيل العمل على راحة أبنائها . وربما كانت أهم صفة تميز الأمومة لدى الانسان هى أن حب الأم لطفلها لا يرتبط – عادة – (كما هو الحال لدى الحيوان) بالمرحلة التى يكون فيها الصغار محتاجين الى الأم ، وانما يظل مرتبطا بالطفل حتى بعد أن يكبر ويشب ويستقل عن أمه . وحينما

تتحدث عادة عن « حنان » الأمومة ، فاننا نعني أن حب الأم لطفلها يغطى على سائر العناصر العدوانية والجنسية التى ينطوى عليها الحب ، اذ تتحول الميول العــدوانية الموجودة لدى الأم نحو « البيئة » التى يعيش فيها حتى تقوم بالدفاع عن طفلها ، كما تتسامى الميول الجنسية الموجودة لدى المرأة فتتخذ صورة العطف والرحمة ، أو قد تجد متنســعا لها فى ملاطفــات الأم لوليدها ومظاهر اهتمامها به ورعايتها له .

٣٢ — وان « الأمومة » لتبدو لنا ظاهرة « نوعية » ذات أرجاع عاطفية خاصة ، فضلا عن أنها تخضع لضرب من التطور خلال مراحل الحبل ، والحمل ، والوضع ، والرضاعة ... الخ وليس من شك فى أن هذه الظاهرة وثيقة الصلة بوظيفة المرأة التناسلية ، ولكن يجب أن ننسى أن حياة المرأة السيكولوچية قد تكون أكثر تعقيدا من حيــاة الرجل ، لما فيها من ثنائيات متعددة وأقطاب لا حصر لها : فهناك الحياة والموت ، وهناك غريزة المحافظة على بقاء النفس وغريزة التناسل أو التكاثر ، وهنــاك الدافع الجنسى ودافع الأمومة ، فضــلا عن ضروب الصراع المختلفة بين الفاعلية والقابلية ، بين العدوان والمازوشية بين الذكورة والأنوثة ... الخ . ولا نرانا فى حاجة الى القول بأن ضروب الصراع المختلفة بين هذه القوى العــديدة (التى يؤثر بعضها على البعض الآخر) هى التى تضفى على سيكولوچية الأمومة الشيء الكثير من العمق ، والخصب ، والثراء . وليس أدل على أهمية « الأمومة » فى حيــاة المرأة من قول شــاعر

پولندى : « ان قلوب النساء لهى كخلايا النحل : ان لم يملأها شهد المحبة وحنـــان الأمومة ، اســتحالت سريعا الى أوكار للأفاعى ! » . ولكن هذا الشاعر قدنسى أن « الأمومة» لايمكن أن تزول تماما من قلب المرأة ، فقد لاحظت احدى الباحثات فى دراســتها للعاهرات أنه قلما تخلو نفس « عاهرة » كائنة من كانت من كل أثر من آثارالحنان أو العطف ، وقلما تكون مجردة من كل عاطفة من عواطف الأمومة . حقا ان هناك نساء تطغى لديهن عاطفة « الأمومة » على كل حياتهن الوجدانيــة ، حتى لتسقط الحواجز لديهن بين العواطف المرتبطة بالأمومة وسائر العواطف الأخرى ، وبالتـــالى فقد تمتزج حياة المرأة الجنسية بعاطفة الأمومة الكائنة لديها ، حتى لتصبح « أما » فى سلوكها نحو الرجل الذى تعاشره ؛ ولكن الرغبة الجنسية لا تسير دائما جنبا الى جنب مع عاطفة الأمومة أو الرغبة فى انجاب النسل . وكثيرا ما يحدث اصطدام بين نزعة المرأة العشقية (Eroticism) وحاجتهـــا الى الأمومة (Motherliness) ، فيتولد عن هـــذا الاصـــطدام أو الصراع شعور عنيف بالاثم قد لا يخفف من حدته سوى استعداد المرأة للتضحية بكل شىء !

والواقع أننا لو أنعمنا النظر فى الصلات القائمة بين «الدافع الجنسى » و « عاطفة الأمومة » ، لتبين لنـــا أن هذه الصلات ذات طبيعة سيكولوچية معقدة ؛ وهذا التعقيد نفسه هو أكبر دليل على أننا هنا بصدد ظاهرة تعدد النطاق الهرمونى البحت . حقا ان « الجنسية » Sexuality و « الأمومة » Motherliness

قد ترتبطان ارتباطا وثيقا قوامه التوافق والانسجام ، ولكنهما قد تنفصلان انفصالا تاما (كما هو الحال لدى بعض الحيوانات) . وكما أن هناك نساء يضعف لديهن الميل الجنسى وعاطفة الأمومة ، فهناك نساء يجمعن الى قوة الميل الجنسى شدة لا نظير لها فى عاطفة الأمومة . وقد يحدث « الانشقاق » بين الميل الجنسى وعاطفة الأمومة لدى المرأة ، فتميل جنسيا نحو رجل ما ، أو تتمنى فى قرارة نفسها أن يبدي هذا الرجل نحوها رغبة جنسية ، مع اختيارها فى الوقت نفسه لرجل آخر تحبه وتخلص له باعتباره أبا لأبنائها . وأما المرأة المتكاملة سيكولوچيا فانها تستطيع أن تشبع ميلها الجنسى ونزوعها نحو الأمومة عن طريق رجل واحد يكون هو موضوع الحب الجنسى ووسيلة تحقق الأمومة معا . وقد يتغلب أحد الدافعين على الآخر ، فيسود أحدهما كل مظاهر الحياة الشعورية ، بينما يبقى الآخر مطويا فى خفايا اللاشعور الى أن تتاح للتحليل فرصة الكشف عنه واعادته الى مجال الشعور . وقد وصف لنا بلزاك مثل هذا الموقف فى رواية أطلق عليها اسم « المرأتين » ، وفيها يروى لنا تجارب صديقتين تتراسلان بانتظام ، والأولى منهما « عاشقة » قد غلب الطابع الجنسى على سلوكها ، بينما الثانية « أم » قد غلبت عاطفة الأمومة على كل تصرفاتها . ولكن الأولى منهما تخفى فى قرارة نفسها ميلا قويا نحو الأمومة ، بينما الثانية تشعر بأن شيئا فى الحياة لا يمكن أن يعدل « الحب » ! والحق أن « الدافع الجنسى » و « عاطفة

الأمومة » هما واجهتا «العملة» فى حياة المرأة السيكولوچية ، فليس لها أن تستعيض عن الواحد منهما بالآخر ، بل لا بد لها من أن تحاول الجمع بينهما .

وتذهب هيلين دويتش الى أن « حب الأم » ليس غريزة ، بل هو عاطفــة ، أو حالة وجدانيــة . فليس حب الأم مرتبطا بالضرورة بالحمل ، وانما قد يكون فى استطاعة المرأة ان تبدى « عاطفة الأمومة » نحو طفل قد تبنته ، أو نحو أبنــاء الزوج الذين أنجبهم من فراش الزوجية الأول . وليس غريبا أن نجد بين النســاء من تتجه بحاجتها الطبيعيــة الى الأمومة نحو موضوعات أخرى (غير أبنــائها) ، فتراها تعطف على أبناء الآخرين ، أو تبدى حنان الأمومة نحو طائفة من البــالغين . ومثل هؤلاء النســاء قد يحترفن فى العــادة مهنا تسمح لهن بالحصول على منافذ لارضاء تلك المشــاعر العاطفية المرتبطة بالأمومة . وحينما تتخلى المرأة عن مستقبلها ، فتقلع عن رغبتها فى الزواج وانجاب النســل ، لكى تعين غيرها من الأمهات ، وتكرس نفسها لخدمة أبنائهن ، مضحية بكل مصالحها ومشاعرها الأنانية ، فانها بذلك تتخذ لنفسها موقف « الأم الحزينــة » (Mater dolorosa) التى تحاول أن تشبع عاطفة الأمومة لديها بطريقة شاذة منحرفة . وهناك حالات أخرى قد تعمــد فيها النساء الى ارضاء حاجتهن الى الأمومة بطرق زائفة ملتوية نظرا لشعورهن بالخوف من المعاشرات الجنســية . وفى مثل هذه الحالات كثيرا ما يكون الدافع الى ذلك هو رغبة الفتاة فى أن

تصبح « أما » دون أن تدنس نفسها بأى أتصال جنسى « قذر » ! وقد روت احدى الباحثات أن بعضا من الفتيات اللائى يرغبن فى أن يصبحن « أمهات » ، مع خوفهن فى الوقت نفسه من «الرجل» ، وعدم رغبتهن فى الارتباط بنظام الزواج ، كثيرا ما يفكرن فى الاتصال برجل مجهول ، لمجرد تحقيق رغبتهن فى الأمومة ، دون الالتزام بأى تقييد اجتماعى أو أية واجبات زوجية ! وكل هذه الحالات الشاذة ان هى الا أمثلة مختلفة تدلنا على مدى أهمية « الأمومة » فى حياة المرأة ، على الرغم من مزاعم الكثيرات من دعاة الحرية النسوية ! وسنرى الى أى حد تحتل « الأمومة » مركزا كبيرا فى حياة الزوجة ، حتى حينما يقع فى ظنها أن حب الزوج قد يغنى عن نداء الطفل .

٣٣ ــ فاذا ما انتقلنا الآن الى دراسة العلاقة بين الاشباع الجنسى لدى المرأة وعملية الاخصاب ، وجدنا أن عددا غير قليل من الباحثين يميل الى القول بأن الاخصاب (Fecundation) لا يتم لدى المرأة الا اذا كان مقترنا باللذة الجنسية . ومعنى هذا أن المرأة « تحبل » فى فيض من « اللذة » أو « النشوة الجنسية » ، كما يقول كيش (Kisch) فى كتابه الموسوم باسم « الحياة الجنسية للمرأة » ، وهافلوك اليس فى كتابه المسمى « سيكولوچية الجنس » [١] . بل ان البعض ليذهب الى حد

Cf. H. Ellis "Psychology of Sex" 9 th Ed.. 1944 (١) P. 295.

أبعـد من ذلك فيقول ان المرأة لتعرف ما اذا كانت قد حبلت أم لا ، بالاستناد الى نوع « اللذة » التى استطاع الرجل أن يمنحها اياها خلال عملية الاتصال الجنسى ! ولكن الرأى الحديث الذى يأخذ به اليـوم معظم علمـاء الجنس هو أنه ليس ثمة علاقة مباشرة بين اللذة الجنسية وعملية الاخصاب . وخير دليل على ذلك هو أن ثمة أمهات أنجبن عددا غير قليل من الأبناء ، ولكنهن لم يعرفن يوما معنى « النشوة » الجنسية الحقيقية . وقد يكون الحائل أحيانا بين المرأة وبين الشعور باللذة الجنسية هو خوفها من الطفل ، أو عدم رغبتها فى انجاب أبناء آخرين .. وربما كان السـبب فى ذلك هو أن المرأة تفهم أن الجمـاع والاخصاب مقترنان ، فهى ترى فى عملية الاتصـال الجنسى بداية للوظيفة التناسـلية التى تنتهى بولادة الطفل وحينما تكون المرأة غير راغبة فى الطفـل ، فان عملية طرد الحيوانات المنوية من الرحم قد تتم بطريقة لاشـعورية ، فيكون خوف المرأة من الحمل عاملا نفسيا هاما يستبعد الرجل والطفل (غير المرغوب فيه) من جسم المرأة . ولكن هذا لا يعنى أن البرود الجنسى والعقم يسيران دائما جنبا الى جنب .

واذا كانت المشاكل المرتبطة بوظيفة « التكاثر » لدى المرأة مشـاكل عديدة لا حصر لها ، فربما تكون مشكلة « العقم » (Sterility) أخطرها جميعا وأولاها بالعناية . وليس من شك فى أن للعقم أسبابا عضوية وهرمونية يمكن العمل على معالجتها بالأسـاليب الطبية الحديثة ، ولكن الملاحظ عادة أن العوامل

النفسية تسير جنبا الى جنب مع تلك العوامل العضوية . وقد يكون عجز المرأة عن انجاب النسل هو فى الأصل وليد عوامل سيكولوجية تتسبب فى حدوث اضطرابات تلحق بالعملية الفسيولوجية نفسها . وفى مثل هذه الحالات قد تعيننا النظرة الصائبة الى عمليات « الفعل الجنسى » على فهم الصعوبة النفسية التى تجدها المرأة فى انجاب النسل . ولسنا نعنى بذلك أن مجرى العملية الجنسية هو نفسه المسئول عن عجز المرأة عن « الحبل » ، وانما نعنى أن الاتصال الجنسى نفسه قد يمدنا بمفتاح هام نستطيع به أن ننفذ الى صميم « شخصية » المرأة ، نتعرف طبيعة أرجاعها النفسية بالنسبة الى عملية « التناسل » . والواقع أن الصراع بين لذة المرأة الفردية ، وخدمتها للنوع باعتبارها أداة للتكاثر ، قد يبدأ فى صميم العملية الجنسية نفسها . وهكذا نجد أن فكرة المرأة عن وظيفتها التناسلية قد تحتل كل شعورها فى عنف وقوة ، فتؤثر على لذتها الجنسية ، أو قد تتخذ مخاوفها اللاشعورية المرتبطة بالتناسل صورة مؤثر « مانع » يحقق عملية « الكف » بطريقة غير مباشرة . وحينما تكون « اللذة الجنسية » هى المسيطرة على كل عملية « الجماع » ، فقد تبقى أفكار التكاثر أو « التناسل » مطوية ، ولكنها مع ذلك تعمل عملها بطريقة عكسية لاشعورية ، فتصبح هى نفسها مؤثرا نفسيا يتسبب فى العقم .

وقد روى لنا بعض المحللين النفسيين أن المرأة قد تشعر بنشوة جنسية هائلة فى الاتصال برجل لا تكن له سوى

الاحتقار والازدراء ! وفى مثل هذه الحالات الشاذة قد يعمد اللاشعور الى معاقبة المرأة بأن يحرمها من تحقيق رغبتها الكامنة فى انجاب النسل . وهنا يكون « العقم » بمثابة عتراف من جانب المرأة بأنه ليس من حقها أن تنجب طفلا من رجل لا تقدره ولا تحترمه . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن احساس المرأة اللاشعورى العميق بالذنب أو الاثم (Sense of Guilt) هو السبب فى هذا « العقم » . والظاهر أن العامل النفسى الرئيسى فى معظم حالات العقم هو الخوف اللاشعورى الناشىء عن الاحساس بالذنب . وآية ذلك أن المرأة قد تخشى «الحبل» اذا شعرت بأن زوجها ليس أهلا لأن يكون أبا ، أو اذا كان لديها من مخاوف الطفولة ما ارتبط بذكريات الحمل والوضع لدى أمها . وهناك نوع من « النساء » يظل محتفظا طوال حياته الزوجية بطابع « الطفولة » (سواء من الناحية الفسيولوجية أم من الناحية السيكولوجية) ؛ ومثل هذا النوع من النساء يظل فى حاجة الى شخصية يستند اليها (سواء أكانت هذه الشخصية هى الأم أم الأب أم الزوج) ، وبالتالى فان انعدام النضج الجسمى والنفسى لديه قد يحول دون الشعور بالحاجة الى الطفل . وقد تتحول كل عاطفة الأمومة لدى المرأة نحو زوجها ، خصوصا حينما تشعر بأن حب الزوج لها مرتبط بما لديها من حنان وأمومة ، ومن ثم فانها قد تتنازل عن رغبتها فى انجاب النسل ، فى سبيل المحافظة على زوجها والعمل على استبقاء حبه لها ؛ أو قد تشعر المرأة

بأن زوجها سينصرف عنها اذا ما هى أقدمت على الحمل ، أو اتجهت بعاطفتها نحو الطفل ، فتكون استجابتها اللاشعورية هى « العقم » . وفى مثل هذه الحالات لا تكون الحاجة الى الأمومة منعدمة لدى المرأة ، بل يكون « العقم » هو مجرد ظاهرة ثانوية تصحب عملية تكيفها أو توافقها مع زوجها . ومن هنا فقد يكون من الأهمية بمكان فى بعض حالات العقم أن يعمد المحلل النفسى الى دراسة نفسية الزوج والزوجة معا ، بدلا من الاقتصار على فحص الرجل طبيا لمعرفة ما اذا كان سلوك الحيوانات المنوية لديه عاديا أم غير عادى .

ومهما يكن من شىء ، فربما كان العامل الرئيسى فى «الحبل» (Conception) هو أن تشعر المرأة بالثقة والاطمئنان فى البيئة المعينة التى تعيش فيها ، وأن تطمئن فى الوقت نفسه الى قدرة زوجها على تحمل تبعات الأبوة . ولا شك أن تجربة «الحمل» (Pregnancy) تولد لدى المرأة ثنائية جديدة تشعر بها على شكل صراع خفى (عميقا كان أو سطحيا) بين قطبين مختلفين : قطب « الأنا » ، وقطب « الطفل » . ومهما كانت حالة المرأة النفسية جيدة ، فانها لا بد من أن تتصور قدوم الطفل باعتباره حدثا جديدا لا يخلو من ازعاج لحياتها الفردية ، مع شعورها فى الوقت نفسه بأنها هنا بصدد « أمل » مقبل لا يخلو من تجربة تفاؤلية . ولا شك أن انتظار المولود الأول هو فاتحة لتطور جديد يطرأ على حياة المرأة ، أو هو نقطة تحول هامة فى كل مستقبلها كأم . وليس أخطر على المرأة فى هذه المرحلة من

أن تشعر بأن زوجها ليس مستعدا لتحمل تبعات « الأبوة » ، أو أنه ليس قادرا على أن يكفل لها أسباب الأمن والحدب والرعاية . واذا كانت القوة الكبرى التى تعمل عملها فى صميم الحياة الانسانية هى « الخوف » ، فان من الواجب أن نقيم وزنا كبيرا لهذه القوة فى حياة المرأة ابان الحمل ، بأن نعمل على تحسين الظروف النفسية والاقتصادية والاجتماعية المحيطة بالحامل ، حتى نضمن لها أسباب الثقة والاطمئنان واكتمال والصحة النفسية [١] .

٣٤ ـ أما اذا عدنا الآن الى دراسة حالة المرأة ابان أشهر الحمل ، فاننا سنجد أن كل سيدة تبدى فى هذه المرحلة بعض العوامل العاطفية القديمة ، وبعض مظاهر الصراع النفسى السابقة ، وهذه كلها سرعان ما تقترن لديها بشتى المظاهر الجسمية الأخرى ، بحيث تصبح لكل امرأة فى هذه المرحلة مظاهر حمل خاصة جسميا ونفسيا معا . ولعل من هذا القبيل مثلا ما نلاحظه من أن ظاهرة « الغثيان » (التى هى ظاهرة عضوية محددة لدى الحامل) قد تقترن أحيانا بكل أحاسيس « التقزز » التى ظلت مختزنة لدى الفتاة ابان الطفولة ، دون أن تملك التعبير عن نفسها فى الخارج . هذا الى أن تخيلات الطفولة المتعلقة بتناول الأطعمة وارتشاف السوائل واختزان

Cf. H. Deutch : "Psychology of Women" Ch. V. (١) P. 125 (Vol. II.).

المأكولات واخراج الفضلات وما الى ذلك من مظاهر جسمية ، قد تقترن بالمظاهر البيولوچية المصاحبة للحمل . وقد لاحظ بعض علماء التحليل النفسى أن المضمون السيكولوچى للتقيؤ المشاهد لدى الحوامل هو بعينه نفس المضمون السيكولوچى للتقيؤ الهستيرى المشاهد لدى الفتيات اللائى يتوهمن لاشعوريا أنهن حوامل ! وليس من شك فى أن « الخوف » فى كلتا الحالتين هو العامل الرئيسى : اذ أن ما تخشاه الفتاة هو « النطفة » الموهومة ، وما تخشاه الحامل هو « النطفة » الحقيقية . ولكن الخوف هنا مقترن بفكرة قديمة ترجع الى عهد الطفولة ، وتلك هى فكرة « الاخصاب » عن طريق الفم ! وقد لوحظ بالفعل أن الحمل لدى النساء اللائى يتصفن بطابع الطفولة ، كثيرا ما يختلط عليهن بأمراض الجهاز الهضمى ، حتى أن مريضة من هذا النوع (فيما تروى احدى المحللات النفسيات) كانت تفحص ما تتقيأه ، حتى ترى ما اذا كان يحتوى على أجزاء من جسم الجنين أم لا ، على الرغم من اعترافها بأنها كانت تعرف أن هذا الوسواس لا سند له من عقل !

وربما كان فى استطاعتنا أن نقول ان معظم التقلبات العديدة التى تطرأ على الجهاز الهضمى لدى المرأة أثناء الحمل هى فى الوقت نفسه ظواهر سيكولوچية تقترن ببعض الذكريات المكبوتة فى اللاشعور . واذا كانت أنثى الانسان هى من بين جميع اناث المملكة الحيوانية أكثرها تعرضا لمثل هذه التقلبات ،

فذلك لأن الحمل يتخذ لديها صــورة صراع حاد بين النوع والفرد . وحتى حينما تكون المرأة على اسـتعداد تام لتقبل الطفل ، فان جهازها العضوى لا بد من أن يثــور بادىء ذى بدء على المهمة التى يفرضها عليه النوع . وفى هذا يقول لعلامة اشتيـكل (Stekel) : « ان تقيؤ المرأة الحامل ــ فى الحالات العصبية المصــاحبة للحصر النفسى ــ يعبر دائما عن رفض ما للطفل ؛ وحينما يكون انتظار المرأة للطفل مصحوبا بشيىء من العداء ــ لأســباب قلما تدرى المرأة من أمرها شيئا ــ فان اضطرابات المعدة لا بد من أن تتضاعف . » ومعنى هذا بعبارة أخرى أن الاخراجات الجوفية تعبر عن انفعالات عدوانية بازاء الحمل والجنين . واذا كان بعض علماء النفس يقرر ان الامساك والاسهال لدى المرأة « الحامل » يتخذان معانى سيكولوجية هامة ، لأنهمــا يعبران عن الرغبــة فى الاحتفــاظ بالجنين أو اســتبعاده ، فان هذا القول يؤيد ما سبق لنا تقريره من أن معظم الاضطرابات المعوية لدى المرأة هى وليــدة ضرب من الصراع الباطن بين الرغبة فى الاحتفاظ بالنطفة (كما تحتفظ الأمعاء بالأطعمة) وبين الرغبة فى اخراجها (كما يستبعد الجهاز الهضمى فضلات الأطعمة) . وعلى كل حال ، فقد لوحظ أن الميل الى وقف الايقاع المنتظم للحمل لدى المرأة ، قلما ينعدم لدى الحامل ، لأنه ظاهرة طبيعية نلقاها لدى السوية والشاذة على السواء . ولكن هذا الميل لايتعارض مع شعور «الأمومة» الذى نجده بوضوح لدى كل امرأة : لأن المرأة والطفل يكونان

منذ البداية وحدة عضوية ، فضـــلا عن أن العمليات العضوية التى تتحكم فى حاجات كل منهما واحدة منذ البداية . ولهذا فان الاتحاد البيولوچى والفسيـــولوچى الذى يتم بين الأم والطفل طوال مدة الحمل ، هو الأســـاس الذى ستقوم عليه « عاطفة الأمومة » باعتبارها حالة وجدانية . وليس من شك فى أن علاقة الأم بالنطفة الموجـــودة فى أحشـــائها لا زالت علاقة غامضة مختلطة ، ولكن هذه العلاقة مع ذلك هى الحجر الأساسى فى بناء ذلك « الحب » العجيب الذى نطلق عليه اسم « حب الأمومة » .

٣٥ ــ أما اذا نظرنا الى علاقة الأم بالجنين ، فاننا نلاحظ أن هذه العلاقة قد تتلون بلون العلاقة القديمة التى كانت قائمة بين الفتـــاة وأمها . واذا كان من الحق أن علاقة البنت بأمها تلعب دورا هاما فى معظم مراحل تطورها ، فان من الحق أيضـــا أن هذه العـــلاقة تؤثر الى حد كبير فى موقف الأم بازاء الجنين الراقد فى بطنها . والســـبب فى ذلك هو أن كل مستقبل المرأة كأم انما يتوقف على درجة تحررها السيكولوچى ومدى قدرتها على الاستغناء عن أمها . حقا ان مرحلة الحمل ــ لدى « المرأة الطفلة » التى تعتمد فى كل شىء على أمها ــ قد تسير ســـيرا عاديا لا أثر فيه للانحراف، أو الاضطراب ، ولكن قد يحـــدث أحيانا أن يتولد عن هذا الاعتماد الكلى على الأم (فى نفس الحامل) رد فعل عنيف يعبر عن شعورها بأنها « هى الأم الآن ، لا والدتها » ! وفى هذه الحالة قد لا يكون الطفل أداة لتحرر

المرأة من أمها ، بل قد يزيد من خطر الموقف ، نظـرا لتولد صراع فى نفس المرأة بين اعتمادها على أمها وحاجتهـا اليها ، وبين ثورتها عليها ورغبتها فى التحرر منها . وحينما يزيد هذا الصراع النفسى عن حـده ، فقـد يؤدى الى « سـقط » (Miscarriage) أو قد يترتب عليه موت الطفل بعـد ولادة سابقة لأوانها .

وليس أدل على أهمية العلاقة بين الطفلة وأمها فى حيـاة المرأة ابان الحمل من قصـة تلك المريضـة التى روت احدى المحللات النفسيات أنها كانت آخر مولودة فى أسرة كبيرة ، ولكن والدتها كانت تنتظر مولودا ذكرا ، فلمـا وضعت هذه الطفلة لم تحسن استقبالها بل أهملتها وأبدت نحوها الكثير من عدم الاكتراث ؛ ولو أن الطفلة نفسها لم تقاس الكثير بسبب حب أبيها لها وعطف أختها الكبرى عليها . وحينما شبت تلك الطفلة ، وأصبحت فتاة ، لم يلبث شعور العداء أن ظهر لديها نحو أمهـا . ثم تزوجت تلك الفتـاة ، ولم تلبث أن حبلت وأصبحت تنتظر مولودا . ولكن على الرغم من أنهـا كانت ترغب رغبة شـديدة فى أن تنجب طفلا ، فان الكراهية التى كانت تكنها لأمها قد جعلتهـا تبغض أن تكون هى بدورها « أما » ، ومن ثم فانها لم تلبث أن وضعت قبل الأوان ، ولم يكن وليدها سـوى طفل فاقد النطق عديم الحياة ! ثم حبلت تلك المرأة للمرة الثانية ، وكان أخشى ما تخشاه أن يحدث لها من جديد حادث من هذا القبيل ، ولكنها لحسن الحظ لم تلبث

أن عثرت على صـــديقة حميمة عرفتها منذ الطفولة ، وهـــذه الصديقة نفسها كانت « حاملا » ! وبفضـــل هذه الصداقة ، استطاعت تلك المرأة أن تعمل على مقاومة مخاوفها ، خصوصا وأن أم صديقتها كانت والدة محبة عطوفة ، فوجدت في شخصها « الأم » الحنون التي طالما شعرت بالحاجة اليها ابان الطفولة . بيد أن الصديقة كانت « حاملا » في شهر متقدم عليها ، فكانت هذه المريضة تخشى أن تواصل حملها بمفردها . ولكن شاءت الظروف أن يتأخر تاريخ وضع صديقتهـــا عن موعده ، فظلت حبلى شهرا عاشرا ، الى أن وضعت الصديقتان في يوم واحد !

وتوطدت الصداقة بين السيدتين ، فعزمتا على أن « تحبلا » في يوم واحد ، للمرة الثـــانية ، ولكن الصديقة لم تلبث أن تركت البلدة في الشهر الثـــالث ، لانتقال زوجها الى مدينة أخرى ، فكان على المريضة أن تواصل أشهر حملها بمفردها ! بيد أنه حينما عرفت تلك المريضة أنها ســـتكون بمفردها منذ الآن ، لم يلبث نزيف حاد أن استبد بها ، وهكذا وقع المحظور ، وحدث لها « ســـقط » آخر ، ولم تعد تستطيع بعد ذلك أن تنجب أطفالا ! والواقع أن ذكرى أمها كانت ترين عليها بشدة ، فلم يكن في استطاعتها أن تواصل حملها بسلام .

وقد تنمو في نفس المرأة ابان الحمل مشاعر الاثم ووساوس الخوف ، فتشعر بأنها ليست أهلا لأن تكون أما ، أو قد تظن أن « لعنة الأم » تلاحقها ، فتتوهم بأن طفلها مائت لا محالة ،

أو أنها سوف تدفع حياتها ثمنا لعصيانها وتمردها ابان الطفولة ... الخ أو قد يكون هناك شبح امرأة أخرى سبق للزوج أن هجرها وتخلى عنها ، فتظن الزوجة أن لعنة تلك المرأة تلاحقها ، وأنها لابد من أن تفقد جنينها بسبب تلك المرأة ! وحينما تكون المرأة قد مارست باسراف ابان الطفولة والمراهقة بعض انعادات السرية ، فان المخاوف النفسية قد تستبد بها ، اذ يخيل اليها أن مولودها لن يكون طبيعيا ، وأنها هى المسئولة عن كل خطر ممكن أن يتعرض له ، ومن ثم فانهـا قد تجد نفسها عاجزة عن انتظار الطفل فى شـوق ولهفة وأمل . وقد يكون من الخطأ أحيـانا أن نظن بأن « الحمـل » الذى يتم فى ظروف صحية حسنة هو بالضرورة دليل على « أمومة » سليمة : اذ قد لاحظ بعض الباحثين أن انعدام كل الأعراض المرضية أثناء الحمل قد يكون بمثابة انكار ضمنى للأنوثة ، أو قد يكون بمثابة رد فعل ضد ما يقترن بالحمل من متاعب جسمية وأمارات ضعف . وفى مثل هذه الحالات قد يكون « الحمل السعيد » (Grossesse heureuse) بمثابة انكار ضمنى للأمومة ، كما هو الحال مثلا لدى النسـاء المشـتغلات ، أو لدى النسـاء ذوات النزعة العدوانية ، أو لدى بعض الأمهات من بين غير المتزوجات . أما لدى النساء «المتبرجات» [1] اللائى لا يرين فى أجسامهن سوى موضوعات للحب ، فان « الحمل » يتخذ صـورة « نقص »

---

(1) « Les femmes Coquettes » (كما يظهر مثلا فى كتاب « حياتى » لايزادورا دنكان (I. Duncan)

يطرأ عليهن ، فيشوه جمالهن ، ويقبح مظهرهن العام ، ويجعل منهن مخلوقات « مسيخة » يستغلها النوع لخدمة أغراضه الخاصة !

بيد أن هناك نساء ـ على العكس من ذلك ـ يشعرن ابان الحمل بالسلام والهدوء والاطمئنان ، اذ يخيل الى الواحدة منهن أن سبب وجودها كامن فى جوفها ، وأن امتلاء بطنها هو فى الوقت نفسه امتلاء لحياتها . وهنا قد تجد «الحامل» اشباعا لرغباتها النرجسية القديمة ، فتنصرف بكل اهتمامها نحو تأمل جسمها والعناية بنفسها ، دون أن تكترث بأى عمل آخر أو أية مهمة أخرى . ولعل هذا هو الأصل فى شعور بعض النساء ابان الحمل بأنهن فى شبه « اجازة » ، وأن المجتمع لم يعد من حقه أن يعهد اليهن القيام بأدنى عمل ! وهكذا ينمو لدى المرأة الشعور بالأهمية ، اذ تشعر بأنها لم تعد مجرد « موضوع » جنسى ، أو مجرد خادمة تنهض بأعباء البيت ، بل هى قد أصبحت الآن حاملة لرسالة النوع ، وليس أجدر بالاحترام والتقدير فى نظر المجتمع من تلك الحياة الخصبة التى تفيض بآمال المستقبل وأسباب بقاء النوع ! ونحن نعرف كيف أن البيئة تحترم « الحامل » ، وتقدس أهواءها ، وتستجيب فورا لكل رغباتها ، حتى أن الحمل ليصبح أداة تستعين بها المرأة فى تبرير أفعال ما كانت لتبدو عادة معقولة أو مقبولة ! أما فيما يتعلق بالمرأة « الولود » التى قد تطلب الحمل لذاته ، فقد لوحظ أن « الحمل » يمثل فى نظرها فترة انعكاف تحقق فيها

كل رغباتها الشعورية واللاشعورية ، دون أن يصحب هذا أى شعور بالاثم . والأم التى تطلب الحمل للحمل لا للطفل هى فى العادة شخصية منطوية تريد أن تتهرب من المسئوليات الحاضرة باسم المستقبل الذى تحمله فى جوفها ! وفى هذه الحالة كثيرا ما يتخذ « الوضع » صورة أليمة ، اذ يكون بمثابة « عود » الى عالم الواقع ، فلا تملك المرأة سوى أن تتقبل هذا الوضع فى مرارة وألم .

٣٦ واذا كانت فترة الحمل هى فى حياة المرأة فترة « الانتظار السعيد » ، فانها أيضا فترة الأوهام والأحلام والتخيلات . وهنا قد تتدخل تهاويل الطفولة ، فتتوهم المرأة انها تطوى بين أحشائها « بطلا » ، أو تسقط على « طفلها » المقبل صورة « مثلها الأعلى » ، أو توحى الى نفسها بأن المولود سيكون صورة مصغرة لوالدها ... الخ . وكما أن المرأة قد تظن أن وليدها سوف يجىء حاملا لشتى المواهب والصفات ، فانها قد تخشى أن تضع مخلوقا مسيخ الخلقة ، أو ناقص التكوين ، أو مصابا بأية عاهة من العاهات ! وقد تصبح هذه الفكرة بمثابة وسواس يحاصرها ويضيق عليها الخناق ، فلاتكف عن الرجوع الى الكتب الطبية ، واستشارة أهل الرأى والخبرة ، خصوصا فى حالة ما اذا كان فى الأسرة شخص ذو عاهة ، أو طفل أعرج أو قريب أبله ... الخ . وعلى كل حال ، فان فترة الحمل هى مرحلة العواطف المتناقضة ، وهى الفترة التى تكثر فيها المخاوف النفسية ، سواء أكان مصدرها هو الشعور بالاثم ، أم وجود

بعض اضطرابات مازوشية فى نفس المرأة تحول بينها وبين ترقب الطفل بسرور ، أم تأثير بعض الرغبات القديمة المرتبطة بالمحارم (Incest) . ولما كان الرجل هو الشريك الطبيعى للمرأة فى عملية انجاب النسل ، فان كل ما يرتبط بالزوج من حب أو كراهية سرعان ما يمتد الى شخصية الطفل ، فتستنزل المرأة اللعنات على ذلك الوليد المسكين (مثلا) لمجرد انه نتاج اتصال جنسى تم فى ظروف أليمة ، أو لمجرد أنها لم تستطع أن تتخلص منه حتى تمحو آثار صلة غير مشروعة ... الخ . وحينما يكون الطفل غير مرغوب فيه ، فان من المؤكد أن الحمل لا بد من أن يتخذ طابع « اللعنة » ، فيصبح الجنين بمثابة عبء ثقيل تنوء به المرأة .

واذا كان من الحق أن للطفل أهمية كبرى فى حياة المرأة ، نظرا لأن كل مقومات شخصية « الأنثى » تتركز فى هذه العلاقة الجوهرية بين الأم والطفل ، فان من الحق أيضا أن عاطفة « الأمومة » قد توجد لدى نساء لم يحبلن ، ولم يلدن ولم ينجبن أطفالا . وقد يكون من الخطأ أن تقول ان مثل هؤلاء النسوة قد قمن بعملية « تسام » أو « اعلاء » لغريزة الأمومة ، اذ الواقع أن حب الأم (مهما كان من صلته بالغريزة) هو فى حد ذاته اعلاء أو تسام . والأدنى الى الصواب أن يقال ان هؤلاء النسوة قد قمن بعملية « تبديل » أو « تحويل » اتجهن فيها نحو موضوعات أخرى . وكلما كانت عاطفة الأمومة أقوى لدى المرأة ، كانت قدرتها أعظم على تحويل ما لديها من حنان

وعطف نحو موضوعات أخرى أو نحو أطفال آخرين . ولهذا فاننا قد لا نعدم بين النساء العقيمات « أمومة » قوية تتمثل فى استعدادهن للقيام بواجبات الأم نحو أطفال متبنين أو نحو يتامى جديرين بالعطف . واذا كان « التبنى » قد لا يشبع حاجة بعض النساء الى « الأمومة » ، فذلك لأن المهم فى نظر المرأة النرجسية ليس هو « الطفل » ، بل صلة الرحم ؛ وشتان بين كلمة « الطفل » وكلمة « طفلى » فى نظر هذا الضرب من النساء !. وحينما يكون الزوجان عاجزين عن انجاب نسل ، فان « الطفل » الذى لم يولد قد يصبح بمثابة طرف ثالث فى الأسرة ؛ وعندئذ قد يتساءل كل من الزوجين عن الشخص المسئول منهما عن هذا « العقم » ؛ وحينما يكون الرجل هو السبب فى هذا العجز ، فقد يتعرض لسخط الزوجة وعدوانها ، أو قد تتحول الحياة الزوجية الى جحيم لا يطاق بسبب شعور المرأة بنقص فى « رجولة » زوجها . وحتى حينما لا يكون عقم الزوج مرتبطا بنقص فى رجولته ، فان حرمان الأم من الطفل قد يدفعها الى التمرد على زوجها ، اللهم الا اذا اتجهت الزوجة بكل عطفها وحنانها نحو زوجها نفسه ، باعتباره بديلا للطفل ! أما حينما يكون عقم المرأة ناتجا من عملية اجهاض ارتضاها الزوج فى بادىء حياته الزوجية (أو قبلها) للتخلص من الطفل أو من مأزق حرج ، فهنالك يكون عداء المرأة ضد الرجل عنيفا عارما ، اذ تشعر بأنه هو المسئول عن تحطيم كل حياتها الزوجية .

٣٧ ـ وليس من شك فى أن « الاجهاض » (Abortion)

مشكلة اجتماعية خطيرة ، لأنها ترتبط بمشاكل تحديد النسل ، ومدى حق المرأة فى قبول « الأمومة » أو رفضها . ولسنا نريد أن نقطع فى هذه المشكلة برأى حاسم ، ولكن حسبنا أن نقول ان الأخطار المترتبة على « الأمومة » القسرية ، قد تكون أقسى على الانسانية من الأخطار الناجمة عن استبعاد « نطفة » من بطن الأم . وقد ذهب بعض الأطباء (مثل الدكتور هرشفلد M. Hirschfeld) الى أن « الاجهاض الذى يقوم به طبيب متخصص فى عيادة طبية ، مع استعمال الأساليب الوقائية اللازمة ، لا ينطوى على تلك الأخطار الجسيمة التى يشير اليها القانون الجنائى . » هذا الى أنه على الرغم من أن الاجهاض ممنوع قانونا فى كثير من البلاد ، فان عدد النساء اللائى يتعرضن لهذا الخطر كل عام يفوق الحصر ، خصوصا وأن سرية العملية قد تضطرهن الى الالتجاء لبعض المحترفات الجاهلات ! وليس أدل على ذلك من أن الاحصائيات فى بلد مثل فرنسا دلتنا على أن عدد حالات الاجهاض فى سنة ١٩٣٣ قد بلغ ٥٠٠٫٠٠٠ حالة ، وفى سنة ١٩٣٨ حوالى مليون ! ، وفى سنة ١٩٤١ حوالى ٨٠٠٫٠٠٠ ؛ حتى أن عدد حالات الاجهاض ليكاد يعادل عدد المواليد ! ولئن كانت الحالة عندنا لم تبلغ بعد هذه الدرجة من الخطورة ، نظرا لاقبالنا الشديد على النسل ، وعدم اهتمامنا بمستوى المعيشة الذى نكفله لأبنائنا ، الا أننا لا نعدم حالات اجهاض بين سائر الطبقات فى مصر . ولا شك أن ردود أفعال المرأة ضد الاجهاض تتوقف

الى حد كبير على الدوافع التى حملتها على اتخاذ هذا المسلك . ولكن من المؤكد فى معظم الحالات أن ما يستتبع هذه العملية ، هو الشعور الحاد بالاثم ، والاحساس القوى بتأنيب الضمير . ومهما حاولت المرأة أن تقوم بتبرير عقلى لفعلتها ، فانها لن تستطيع أن تتقبل الأمر بواقعية صرفة أو عدم اكتراث تام . ولا يرجع هذا الشعور الى التربية الدينية التى تصور لنا استبعاد النطفة بصورة قتل النفس فحسب ، وانما يرجع هذا الشعور أيضا الى احساس المرأة بالخلاء أو « الخواء » (Vacuum) بعد اقدامها على عملية الاجهاض ، مما يتولد عنه أسفها على التضحية ، وجزعها للتغير الذى طرأ عليها ، وسخطها على زوجها (أو عشيقها) الذى دفعها الى اتخاذ هذا المسلك .

ولكن مهما كان من أمر القوانين والشرائع ، فان تحريم الاجهاض كثيرا ما يزيد من تعقيد الموقف . ولا نرانا فى حاجة الى القول بأن الرأى العام كثيرا ما ينتصر لحق المرأة فى تقبل الأمومة أو رفضها بالأساليب التى ترتضيها . واذا كانت المرأة قد لا تأنس من نفسها استعدادا لانجاب الطفل والقيام برعايته والعمل على تربيته ، فبأى حق يفرض عليها المجتمع الاضطلاع بهذه المهمة ، خصوصا وهو يعلم أن رفض المرأة للأمومة هو تضحية كبرى لا يمكن أن تقدم عليها الا عند الضرورة القصوى ؟ أما الزعم بأن استبعاد النطفة هو قتل للنفس ، فان أقل ما يمكن أن يقال فى الرد عليه هو أنه من الخير للكثير من المجتمعات أن تستبعد نطف قليلات (أو كثيرات)من ان تكثر

حوادث القتـــل والاجرام وهتك الأعراض وما الى ذلك من جرائم خطيرة هى وليدة التربية الســيئة ، والعجز عن تنشئة الأطفال ، وانجاب النسل للالقاء به فى الشوارع والطرقات !
ولن نستطيع فى هذا المقام أن نعرض لدراسة مشكلة « تحديد النسل » ، ولكن حسبنا أن نقول ان الوظيفة التناسلية لا يجب أن تترك للصــدفة البيولوچية المحضة ، بل يجب أن تتحكم ارادة الأفراد فى انجاب النســل . وقد أصــبحت الآن طرق « تحديد النسل » فى بعض البلاد أســاليب مشروعة تلتجىء اليها النســاء للاستغناء عن عملية « الاجهاض » ، وأصبحت « الأمومة » مهمة حرة تنهض بها المرأة كلما أنست من نفسها قدرة واستعدادا . وصفوة القول أن لكل امرأة الحق فى أن تصبح « أما » أو أن تتخلى عن أمومتها ، بحسب ما تقضى به ظروفها الخاصة ، وبالأساليب المعينة التى ترتضيها لنفسها [1] .

وليس من شك فى أن المرأة حينما تتقبل الأمومة ، فانها تمر بتجربة هامة تتوثق فيها العلاقات بين ذاتها وذات الجنين الذى تحمله ، وذلك لأن من شأن « الحمل » أن يرفع الحواجز بين « الأنا » و « الأنت » . ولكن الطفل لا بد من أن يستحيل شــيئا فشيئا الى « موضوع » ، حتى لا يتخذ « الوضع » صورة انفصـــال أليم لجزء من « الأنا » ، أو حالة فقــدان

---

(1) Cf. H. Deutsch : "Psychology of Women.", Vol. II., 1945, P. 179.

سيكولوجى يتحطم معها جزء من بنية الشخصية . والواقع أن آليات « الدفاع » لدى الحامل . تنزع منذ البداية نحو جعل « الطفل » موضوعا أو شيئا خارجيا ، حتى تنصرف المرأة الى الاهتمام به والاستعداد لاستقباله . ومن هنا فان أشهر الحمل مرتبطة بنشاط تقوم به المرأة فى عالم الواقع للعمل على تهيئة أسباب الراحة والرعاية لوليدها المقبل . ومع ذلك ، فان « الوضع » (Delivery) لا بد من أن يتخذ صورة « تجربة انفصالية » يخرج فيها من بطن الأم ذلك الكنز الثمين الذى كانت تخبئه بحرص فى أعمق أعماقها ! وبمجرد ما تنفصم عرى الاتحاد بين الأم وطفلها ، فسرعان ما تظهر لديها نزعتان متعارضتان : نزعة تقدمية تحدوها الى مساعدة ذاتها على استعادة حقوقها ، ونزعة ارتدادية تدفعها الى الاتحاد بطفلها ، وتوثيق عرى ذلك « الحبل السرى » السيكولوجى الذى يربط بينهما ! ولعل هذا هو السر فى نشأة صراع حاد لدى المرأة بين مطالب الذات ووظائف النوع ، لولا أن «حب الأم» سرعان ما يوفق بينهما ، فيكون بمثابة الجسر الذى يربط الفرد بالنوع .

٣٨ ــ ولسنا نريد أن نفيض فى شرح الحالات النفسية السابقة للوضع والمصاحبة له والناجمة عنه ، فذلك مما قد يضيق به المقام ، ولكن حسبنا أن نشير الى أن كل مخاوف الطفولة لا بد من أن تعود الى الظهور فى كل هذه المرحلة . وسواء أكان موقف المرأة قبل الوضع هو موقف اللهفة

الممزوجة بالفضــول وحب الاســتطلاع ، أم موقف الخوف الشديد المقترن بالجزع من الموت ، أم موقف التردد المستمر بين مشاعر التفاؤل ومخاوف التشاؤم ، فان من المؤكد أن كل ماضى الشخصية بما اختلف عليها من أحداث ، هو الذى يفصل فى هذه المرحلة الحاسمة من مراحل حيــاة الأم . والواقع أن عملية « الوضع » ليست مجرد عملية جسمية (Somatic) ، بل هى عملية « سيكو ــ سوماتية » (أى جسمية ونفسية معا) . وحينما تكون الشخصية بازاء تجــربة خطيرة ، فانها سرعان ما تحشــد كل آلياتها وامكانياتها لمواجهة مثل هذا الموقف . واذن فليس بدعا أن نجد كل تجارب المرأة المرتبطة بالطفولة والمراهقة ، وعلاقتها بأمها ، ونوع صلاتها بزوجهــا ، وطبيعة موقفها من الطفل ابان الحمل ، نقول انه ليس بدعا أن تتركز كل هــذه التجارب فى صميم عملية « الوضع » لكى تسهل الولادة أو تعوقها ، ولكى تجعل دور المرأة أثناء الوضع سلبيا محضا أو ايجابيا فعالا . واذا كانت عملية الوضع قد لا تستغرق ســوى ثلاث ســاعات أو قد تدوم يوما بأكمله ، فذلك لأن موقف المرأة من العملية يختلف باختلاف طبيعتها النفســية وحالتها العامة . وبينما نجد أن المرأة المسترجلة قد تشــارك مشاركة فعلية ايجابية فى تسهيل عملية الوضع ، نرى أن المرأة الطفلة تقف من هذه العملية موقفا سلبيا محضا ، تاركة للطبيب أو المولد أن يتصرف بمفرده . وليس من شك فى أن للصــلة القائمة بين المرأة والطبيب (أو المولد) أهمية كبرى ، لأنها قد

تساعد المرأة على طرد المخاوف من نفسها أو قد تجعلها تعتمد عليه اعتمادا كليا باعتباره « بديلا » للأب (أو للأم) . وان الصراع ليظهر حادا أثناء الوضع بين مصلحة الفرد ومصلحة النوع : اذ قد يتعين على الطبيب أحيانا أن يضحى بحياة الواحد منهما فى سبيل الآخر ، ولكن مخاطر الولادة قد قلت أو كادت تنعدم بعد التقدم الكبير الذى أحرزه الطب الحديث .

وقد اختلفت آراء الأطباء بصدد « الولادة بدون الم » ، فذهب البعض الى ضرورة تخفيف آلام المرأة أثناء الوضع ، بينما ذهب البعض الآخر الى أن « الألم » عنصر ضرورى فى تجربة « الولادة » ، وأن المرأة تريد فى قرارة نفسها أن تشارك فى صميم هذه التجربة ، عاملة على محاربة الألم بأساليبها الخاصة . ولكن على الرغم من ضرورة الأخذ بيد المرأة أثناء الوضع ، فقد يكون من الخطأ أن نجعل موقفها سلبيا محضا من هذه العملية الابداعية . والواقع أنه لا بد من أن تقترن عملية « الوضع » بشيىء من الشعور والمشاركة الفعالة من جانب المرأة ، والا فان استقبالها للطفل سيكون بمثابة استقبال لكائن غريب لم تساهم هى ايجابيا فى خلقه ! وآية ذلك أن المرأة التى تفقد وعيها أثناء الوضع ، قد تسلك سلوكا شاذا بازاء طفلها بعد استرجاعها لوعيها ، أو قد لا تشعر بأى سرور أو عاطفة عند تقديم المولود الجديد اليها . واذن فان مشاركة الأم فى عملية الوضع هى التى تخلع على هذه العملية طابع « الخلق » أو « الابداع » ، وهى التى تجعل من « الطفل »

ثمرة حقيقية لجهد خالق أو ابداعى . واذا كانت « أبوة » الرجل هى بطبيعتها « غير أكيدة » (Pater incertus est.) ، فان الطرق الحديثة فى الولادة قد جعلت موقف « الأمومة » من الطفل شبيها بموقف « الأبوة » اذ أصبحنا نجد الأم التى تسترد وعيها بعد عملية الوضع لا تلبث أن تبدى دهشتها قائلة : « أهذا هو طفلى ؟ » . ومهما يكن من شيىء ، فان من المؤكد أن خبرة الأم المكتسبة أثناء الولادة هى الحجر الأساسى فى مستقبل الطفل النفسى .

فاذا ما انتقلنا أخيرا الى مرحلة « الرضاعة » ، وجدنا أن هذه المهمة التى تقع على عاتق الأم هى الوظيفة الأصلية التى توثق العلاقة بينها وبين الطفل . وهنا قدتجد المرأة فى «الطفل» معادلا للقضيب ، أو قد تنظر اليه على أنه حلقة الاتصال بينها وبين الواقع الخارجى ، أو قد تجد نفسها بازاء مخلوق تحبه ولكنها تشعر بالوحدة أثناء وجودها معه نظرا لعدم قدرته على الاستجابة . وكثيرا ما تلعب ذكريات الطفولة دورها فى هذه المرحلة أيضا ، فيكون لنوع العلاقة التى كانت قائمة بين الطفلة وأمها تأثير كبير علىحالتها النفسية . وقد روت احدى الباحثات أن أما صغيرة السن كانت تجد نفسها عاجزة عن ارضاع الطفل كلما قدمت أمها لزيارتها ! وقد تشعر الأم بعد الوضع بأن جسمها قد فقد شيئا غير قليل من جماله ورشاقته ، فتظهر لديها حالة صراع بين عاطفة الأمومة وعاطفة العشق الذاتى أو النرجسية . وقد يؤدى هذا الصراع الى عودة الأم الى مرحلة

قديمة سابقة على مراحل الحمل والولادة . حقا ان الأم فى كل هذه الأثناء تحاول أن تبقى على الوحدة القائمة بينها وبين طفلها ، ولكنها قد تشعر بالكثير من المخاوف لعجزها عن القيام بكل مهام الأمومة أو لعدم ثقتها فى قدرتها على تزويد الطفل بالقدر اللازم من العطف والرعاية . وهكذا قد ينشأ لديها الخوف من فقدان الطفل ، فتشعر بحاجتها الى « بديل » للأم . وعلى كل حال ، فان مصير الأمومة فى هذه المرحلة انما يتوقف على هذا الصراع القائم فى نفس الأم بين تلك النوازع المتعارضة . ولكن ربما كان من الضرورى فى هذه الفترة أن تترك الأم ووليدها ، فى شبه عزلة أو انعكاف ، حتى يتسنى لها أن تسيطر على الموقف بأساليبها الخاصة .

الفصل السادس

المرأة فى سن اليأس

٣٩ ـ قد يعجب القارىء حينما يجدنا ننتقل ـ فى طفرة واحدة ـ من « دور الأمومة » الى « سن اليأس » . ولكن يجب أن نلاحظ أن « الأمومة » ليست مجرد « مرحلة » من مراحل تطور المرأة ، وانما هى الوظيفة الرئيسية التى تتركز حولها كل حياة المرأة منذ الطفولة حتى الشيخوخة . ولست « الأمومة » بالنسبة الى المرأة مجرد غريزة حيوانية ، وانما هى عاطفة خصبة « تستمد منها معظم مظاهر النشاط النسوى قوتها الدافعة وطاقتها الابداعية » . حقا ان الأمومة تنطوى على عمليات صراع مختلفة تتم فى نفس المرأة بين مطالب الذات وخدمة النوع ، بين ميل الأم الى المحافظة على الوحدة التى تربطها بالطفل ونزوع الطفل الى الاستقلال والتحرر ، بين الحب والعداء ، فضلا عن اقترانها بالكثير من مظاهر الصراع الشخصى والعصابى ؛ ولكن من المؤكد أن كل مصير المرأة انما يتوقف على مدى قدرتها على تحقيق تكاملها النفسى من خلال هذه العمليات نفسها . فليست الأمومة مجرد حمل تنوء

به المرأة ، بل هى أداتها الى تحقيق تكاملها النفسى ، وهى وسيلتها الى اكتساب « الاتزان » اللازم لبلوغ السعادة وعلى الرغم مما يكتنف الأمومة من مصاعب ومشكلات ، فانها تعبر عن تلك « التجربة » الخصبة التى تستطيع المرأة من خلالها أن تحقق رسالتها ، وأن تجد لذة كبرى فى الوفاء بمطالب مصيرها البيولوچى. وحينما تشعر المرأة بأنها قد نهضت بهذه المهمة على الوجه الأكمل ، وأنها قد نجحت فى أن تحقق توازن أسرتها ، وأنها قد استطاعت أن تكفل لأبنائها ما هم فى حاجة اليه من معونة وجدانية واجتماعية ، فانها عندئذ قد لا تجد حرجا فى أن تتقبل باتزان وتعقل تلك الأحداث البيولوچية الهامة التى تعرض لها باقتراب « سن اليأس » (Ménopause) — وهى السن التى يؤذن بانتهاء خدمتها للنوع .

وقد اختلفت آراء الباحثين فيمايتعلق بأعراض هذه المرحلة ، فذهب البعض الى أن لهذه المرحلة أهمية كبرى فى حياة المرأة نظرا لما قد يصاحبها من اضطرابات نفسية خطيرة ، بينما ذهب البعض الآخر الى أن الأعراض النفسية المصاحبة لهذا التحول الفسيولوچى ليست بذات بال . ونحن نعرف أن ما يميز هذه المرحلة فسيولوچيا هو انقطاع الحيض ، وتوقف تكوين البويضات ، وضمور الأعضاء التناسلية ، وظهور أعراض الشيخوخة على باقى أجزاء الجسم . واذا كان البعض قد أطلق على هذه الفترة من حياة المرأة اسم « المرحلة الحرجة »

(Critical Period) ، فذلك لأن للتغيرات الهرمونيـة التى تطرأ على جسم المرأة آثارا سيكولوچية تعبر عن أرجاع الأنثى بازاء هذا الانحـدار الجسمى أو الانحلال العضـوى الذى تتعرض له فيما بين سن ٤٥ و ٥٠ عادة . ـ ولسـنا نريد أن نسهب فى وصف هذا الانحلال ، ولكن حسـبنا أن نقول ان لسن اليأس مرحلة تمهيدية (تشبه مرحلة ما قبل البلوغ بالنسبة الى دور المراهقة) ، وهذه المرحلة تتميز بحدوث اضطرابات فى العادة الشهرية تجىء مصحوبة ببعض حالات الأرق والحصر النفسى وسرعة التهيج والهبوط النفسى . والظاهر أن المرأة فى هذه المرحلة تدرك العمليات البيولوچية الباطنة ، قبل أن تفطن الى التغيرات العضوية الخارجية . وهذه الأمارة الباطنة سرعان ما تقترن بادراك العلامات الأولى للشيخوخة ، فيترتب عليها تزايد اهتمام المرأة بشخصها . وهكذا ينشأ لدى المرأة ضرب من الصراع فى سبيل المحافظة على أنوثتها ، حتى قبل أن يطرأ أى توقف على جهازها التناسلى . وتبعا لذلك فان نشاط المرأة سرعان ما يتضـاعف ، وقد يتجه هذا النشـاط نحو المراكز المهددة بالذات ، فنرى المرأة تشـعر برغبة حادة فى أن تحبل وتعاود تجربة الأمومة التى سبق لها أن تخلت عنها منذ سنوات طويلة ! وعلى الرغم من كثرة مشاغل المرأة ، وتعدد واجباتها فى البيت أو خارجه ؛ بل على الرغم من استغراقها فى مشاكل أبنائها البالغين ، فانها قد تنجب فى هذه الفترة السـابقة على

سن اليأس طفلا أو طفلين ، وكأن لسان حالها يقول : « لنغتنم الفرصة قبل أن توصد الأبواب ! »

أما بالنسبة الى النساء اللائى كن منشغلات بوظيفة التناسل، منصرفات الى تربية الأولاد والعنـاية بهم ، فان التعطش الى العمل يتخذ صورة أخرى ، فنرى المرأة المقبلة على سن اليأس تتجه نحو مشاغل خارجية تخرج بها عن نطاق البيت ، أو قد تعاود الاهتمام بهوايات قديمة كانت قد تخلت عنها قبل الزواج . وقد يحدث أحيـانا أن تفطن المرأة الى ميول قديمة كانت قد اتجهت نحوها فى الفترة السابقة على البلوغ ، فنراها تحاول أن تستعيد ذكرى تلك الميول القديمة ، بأن تعمد ــ مثلا ــ الى عزف مقطوعات موسيقية أو رسم لوحات فنية ... الخ . والواقع أن الفترة السـابقة على سن اليأس كثيرا ما تقترن لدى المرأة بتجدد الرغبة فى الخلق أو الابداع الفنى ، خصوصا وقد أصبح لدى المرأة ــ بعد نضج أبنائها واستقلالهم عنها ــ متسع من الوقت للتفكير فى تلك التجارب الفنية التى لم تتركها عنـد الزواج الا على مضض ! وما دام « الحبـل السرى » السيكولوچى الذى كان يربط الأم بالطفـل قد انقطع ، فلم يعد هناك ما يحول بينها وبين الانصراف الى « الخلق الفنى » الذى هو بمثابة تعويض عن « وظيفة التناسل » . وكأن لسان حال المرأة هنا يقول : « اذا لم يعد فى وسعى الآن أن أنجب أطفـالا ، فلا أقل من أن أبحث عن شىء آخر ! » وليس من شك فى أن نشاط المرأة فى هذه الفترة انما هو بمثابة آلية من

آليات الدفاع ، تحاول بمقتضاها أن تستجيب لذلك « الموت الجزئى » الذى يتهددها باعتبارها خادمة للنوع . وحينما تشعر المرأة بأنها قد أصبحت على أبواب الشيخوخة — والشيخوخة أصيل الحياة — فانها سرعان ما تجد نفسها مضطرة الى محاربة هذا الانحدار بقوة ونشاط . فليس التعطش الى العمل هنا الا بمثابة تعبير عن صراع المرأة ضد الانحلال . هذا الى أن اقتراب سن اليأس قد يولد لدى المرأة شيئا من « الثورة » أو « التمرد » ، فنراها تحاول أن تؤكد بنشاطها أنها ليست مجرد خادمة للنوع ، أو مجرد آلة تنتج أطفالا ، وانما هى شخصية حرة تملك نشاطا عقليا وحياة وجدانية ، وبالتالى فان « الأمومة » ليست هى وظيفتها الوحيدة فى الحياة ! وقد تنجح المرأة عن هذا الطريق فى أن تجد مخرجا من كل تلك التعقيدات البيولوچية التى تطرأ عليها فى هذه المرحلة الحرجة من مراحل حياتها .

٤٠ — بيد أن التغيرات المصاحبة لسن اليأس سرعان ما تعرف طريقها الى المرأة ، فينقطع الحيض تماما ، ولا تعود أكياس دى جراف تتفتح ، ولا تعود أغشية الرحم المخاطية تتجدد ، ثم لايلبث المبيضان أن يكتسبا طابع نسيج صلب ملتحم . وهكذا ينتهى الأمر بجهاز المرأة التناسلى الى أن يصبح عبارة عن مجموعة من « البنايات » الزائدة عن الحاجة ، أو التى لا تقوم بأية وظيفة فعالة . وهناك تغيرات أخرى مماثلة تطرأ على الأعضاء الغددية ، فتزداد طبقات الشحم تحت الجلد ، وينمو

الشعر بغزارة (خصوصا فوق الشفتين ، وعلى الخدين . وفى الأجزاء المحيطة بالبطن) . وليست دلالة هذه التغيرات التى تطرأ على المرأة فى ســن اليأس بقاصرة على توقف الانتــاج الفسيولوچى ، وانما هى تشير أيضا الى وجود انحلال عام . وهكذا تفقد المرأة شيئا فشيئا كل ما كانت قد اكتسبته أثناء المراهقة ، لكى لا يلبث جمالها أن يتبدد ، فتزول معه حرارة الشباب ، ودفء العاطفة ، ومظاهر الأنوثة الحيوية .

وهنا قد يتغير ســلوك المرأة ، فنراها تحاول أن تثبت فى عناد أنها لازالت شابة ، وأن كل ما طرأ عليها من تغير لم يستطع أن ينفذ الى صميم حياتها الجنسية ! واذا كان البعض قد سمى ســن اليأس باسم « العهد الخطير » ، فذلك لأن المرأة فيه قد تصبح مدعاة للسخرية ، خصاصا حينما تأبى أن تعترف بالأمر الواقع ، فتحاول أن تقلد الفتيات فى سن المراهقة ، كما يبدو بوضوح من سلوك هذا النوع من « النساء » المسنات اللائى دأب أصحاب « الفن الهزلى » على السخرية منهن بقسوة على خشبة المسرح . ولعل من هذا القبيل مثلا ما قد تلتجىء اليه بعض النســاء فى هذه الفترة من ارتداء الأزياء الشــابة ذات الألوان الصارخة ، أو الاقدام على بعض التجارب الغنيــة الخصبة ، أو اتخاذ مسلك الفتيات الصغيرات عموما (كتابة المذكرات ــ الاهتمام بالأفكار المجردة ــ التعلق بالمثل العليا الخيالية ــ اتخاذ موقف جديد من الأسرة ... الخ) . وقد تجد المرأة لذة كبرى فى أن تلتجىء الى الطرق الحديثة فى علم النفس

من أجل مقاومة الشيخوخة ، فتعزى نفسها بقولها « ان والدتى في مثل سنى كانت عجوزا طاعنة فى السن ! » . وحينما يزداد شعورها بالنرجسية ، فانها قد تسرف فى استعمال الأصباغ والمساحيق وشتى وسائل الزينة ، حتى تتعرف فى المرآة على وجه تلك « الشابة الجميلة » التى افتقدتها الى غير ما رجعة ! وقد تضطرها الرغبة فى الاستماع الى كلمات المديح والثناء ، وعبارات الاعجاب والتقدير ، الى البحث عن أناس هم دون مركزها بكثير ، ولكنها تجد لديهم ما قد يضن به عارفوها من اعجاب واستحسان ! وكثيرا ما تتغير نظرة المرأة فى هذه الفترة الى زوجها ، فيخيل اليها فجأة أنه لم يكن جديرا بها ، وأن قبولها للزواج منه لم يكن سوى خطأ فاحش ! وهكذا قد تعود المرأة بذاكرتها الى ما قبل الزواج ، فتحاول أن تستعيد صورة ذلك الشاب الوسيم الذى بادلها الغرام يوما ، أو تعمد الى تصور حالها اليوم لو أنها قبلت الزواج من ذلك «المجهول» الذى التقت به عرضا فى احدى الحفلات ... الخ . وان الحدود لتكاد تمحى الآن فى نظرها بين الحقيقة والخيال ــ كما كان العهد بها تماما ابان المراهقة ــ فنراها تتحدث عن « الأيام السعيدة » الماضية ، ناسية أنها منذ حين لم تكن تجد فى تلك الأيام سوى ذكريات سيئة تحدث فى نفسها الخجل والندم والاشمئزاز ! وقد تعمد المرأة فى هذه الفترة الى تكوين صداقات جديدة ، فنراها تقدم على توثيق علاقاتها بأناس

مشكوك فى أمرهم ، أو تقرب اليها نساء ذوات سمعة سيئة ، لمجرد أنها تجد فى حياة مثل هؤلاء « النسوة » غموضا سحريا يجعل لهن اغراء وجاذبية فى عينيها (كما كان الحال بها طفلة أو مراهقة) !

وهناك نساء أخريات لا يجدن فى سن اليأس أى عزاء اللهم الا بالالتجاء الى حصن «الدين» . وهنا قد تظهر المرأة اهتماما كبيرا بمشاكل المصير والخلود وما بعد الموت ، فتعود الى قراءة الكتب المقدسة ، وتهتم بممارسة الفروض والعبادات ، وتلتجىء الى رجال الدين تلتمس عندهم المعونة والنصح والقيادة الروحية . وقد لا تجد المرأة لديها من « الروح النقدية » ما تستطيع معه التمييز بين الغث والسمين ، أو بين رجال الدين وأهل الشعوذة والمحتالين ، فنراها تقع فريسة سهلة فى يد بعض الأفاكين ، خصوصا وأنها لا تريد المنطق والحجة والدليل ، بل هى تريد الالهام والمعجزة والرؤى الخاصة ! وليس من النادر أن تتحول المرأة المستهترة فى سن الشيخوخة الى عابدة زاهدة ، فلايعود لسانها يكف عن التمتمة بالأدعية والصلوات ، ولا تصدر فى مختلف تصرفاتها الا عن دوافع التضحية وبذل الذات . وهكذا يكون « سن اليأس » فى هذه الحالة بمثابة حد فاصل بين فترتين هامتين من حياة المرأة : فترة التبرج والاستهتار ، وفترة التعبد والاستغفار ! [1] وحينما تنظر المرأة

---

(1) هناك مثل ألمانى يقول «ان العاهرة حينما تشيخ فانها تتحول الى راهبة» ! (Ayoung harlot, an old nun).

الى ماضيها البعيد ، فترى الحياة تافهة قصيرة الأمد ، أو حينما تنظر الى المستقبل ، فترى الأبدية غامضة لا نهائية الأفق ، فانها عندئذ سرعان ما تحاول التكفير عن ماضيها ، آملة أن ينزل الله « السكينة » على قلبها الذى طالما تقاذفته الأهواء والشهوات !

٤١ — وكثيرا ما يقترن سن اليأس بأزمات « غيرة » حادة ، فيقع فى ظن المرأة أن زوجها يخونها أو يضطهدها ، وتمتد غيرتها الى أصدقاء الزوج وأخواته ومعارفه ومهنته . وهناك حالات « غيرة مرضية » تتحطم بسببها صداقات قديمة ، اذ قد تنقطع الصلة فجأة بين فتاتين بقيتا معا دون زواج طوال حياتهما ، ولكن سن اليأس لم يلبث أن جعل « الغيرة » تدب فى قلب كل منهما ، بسبب تزايد الصراع الباطن فى نفس احداهما أو كلتاهما معا ، فلم يلبث الخلاف أن دب بينهما ، وانتهى الأمر بهما الى قطع صلة كانت يوما قائمة على حب الجنس للجنس والواقع أن « سن اليأس » كثيرا ما يكون مصحوبا ببعض أعراض التهيج الجنسى ، خصوصا لدى النساء المتزوجات ، حيث قد يزيد من خطورة الموقف فتور النشاط الجنسى لدى الرجل ، مما قد يترتب عليه عجزه عن اشباع تلك الحمية الجنسية التى تظهر فجأة لدى زوجته . وحينما تجد المراة نفسها بازاء زوج فاتر خامد العاطفة ، فقد تشتعل « الغيرة »

فى نفسها ، اذ يخيل اليها أن زوجها قد انصرف عنها ، أو أنه قد اتجه بعاطفته نحو امرأة أخرى ! [1]

وليس أدل على تشابه « سن اليأس » و « مرحلة المراهقة » من أننا نلحظ فى كلتا المرحلتين تزايدا فى القابلية للتهيج الجنسى ، حتى أن تخيلات « الدعارة » التى كانت تطوف بذهن المراهقة تعود الى الظهور من جديد فى مخيلة المرأة الطاعنة فى السن ، فنراها تتخذ صورة مرضية فى بعض المحاولات التى قد تقوم بها المرأة من أجل اغواء الشبان أو اغراء بعض المراهقين ! واذا كان فرويد قد أطلق على المراهقة اسم « النسخة الثانية » من مرحلة الطفولة ، وذلك لأنه وجد فيها بعثا جديدا لعقدة أوديب ، فربما كان فى استطاعتنا أن نسمى « سن اليأس » باسم « النسخة الثالثة » من مرحلة الطفولة ، وذلك لأننا نجد فى هذه السن علاقات من هذا القبيل تنشأ فيما بين الأمهات وأطفالهن البالغين . وهكذا نجد أن الحب الرقيق اللاجنسى الذى كان موجها يوما نحو الوالدين يعود فيتجه الآن نحو الأبناء ، مع اكتسابه فى الوقت نفسه لبعض عناصر جنسية لاشعورية . وتبعا لذلك فان « الابن » لا يلبث أن يحل محل « الأب » ، ومن ثم فان حب الأم لولدها قد يتخذ صورة غرام عنيف لايخلو من نوازع جنسية . وحينما تقع المرأة العجوز فى حب شبان صغار السن ، فانها تعبر بذلك

(١) Cf. H. Ellis: « Psychology of Sex », p. 271.

عن رغبتها فى الحصـــول على « بديل » للابن . وربما كان من الطريف أن نذكر ـ فى معرض الحديث عن التهييج الجنسى لدى النساء فى سن اليأس ـ أن شخصا وجه يوما سؤالا الى الأميرة مترنك (Metternich) قائلا : « فى أى سن تكف المرأة عن الاهتمام بالحب ؟ » ، فكان جوابهـــا : « ان عليك أن تتجه بسؤالك نحو شخص آخر ، فاننى لم أتجاوز بعد الستين من عمرى » ! [١]

٤٢ ـ وقد يكون من الصعب فى كثير من الأحيان أن نحدد سمات المرأة فى مرحلة الشيخوخة ، فان رد فعل المرأة ضد سن اليـــأس يتوقف الى حد كبير على نوع شخصيتها وأسلوب حياتهـــا ابان المراهقة والأمومة . ولعـــل من هذا القبيل مثلا ما نلاحظه من أن النســـاء اللائى نجحن فى حياتهن الســـابقة (ابان الزوجيـــة) فى اعلاء ميول « الذكورة » ، لا يلبثن أن يقعن تحت تأثير « عقدة الأنوثة » فى سن اليأس . ولكن مهما كان نوع المرأة ، فانها لا بد فى سن اليأس من أن تشعر بضرب من « الهبوط النفسى » ، شديدا كان أو عنيفا . وقد يقترن هذا الهبوط بشيىء من الهواجس أو المخاوف ، فتشعر المرأة بضرب من « الهجاس » المرتبط بجهازها التناسلى ، وتتحدث عن عضوها التناسلى وكأنما هو « ورم » أو تضخم لا بد من استئصاله . ولا شك أن هذا « الهجاس » هو مجرد تعبير عن

---

(١) H. Deutsch : "Psychology of Women.", II, 471.

شعور المرأة بانحلال ذلك العضو الحيوى ، وتهدم وظيفته الرئيسية . وعلى كل حال ، فان الملاحظ عادة أن الهبوط النفسى المقترن بسن اليأس يكون أخف وطأة لدى النساء ذوات النزعة السلبية المؤنثة منه لدى النساء ذوات النزعة العدوانية المذكرة . وهناك بطبيعة الحال عوامل خارجية كثيرة تتحكم فى نوع استجابة المرأة لأعراض سن اليأس . فالمراة التى استمتعت فى حياتها الزوجية بتكامل نفسى قوامه الانسجام والاتزان ، قد لا تجد فى هذه المرحلة سوى « شهر عسل جديد » ! والمرأة التى كانت حياتها فائضة بالحب والجمال والسعادة ، قد تظل محتفظة بجمالها وأنوثتها الى أمد طويل . واذا صح ما يقوله فرويد من أن « عشق الانسان لذاته قد يكون هو سر الجمال » ، فربما كان السر فى احتفاظ مثل هؤلاء النساء بجمالهن وأنوثتهن هو تلك « النرجسية » الفائقة التى تجعلهن ذوات جاذبية أنثوية خاصة ، وكأن الحب قد أحاطهن بهالة سحرية من الغموض المستحب الذى لا تقوى عليه الشيخوخة !

وهناك حصن آخر قد تلتجىء اليه المرأة للاحتماء من صدمات « سن اليأس » ، ألا وهو « النشاط الاسترجالى » . والحق أن « الذكورة » تقوم دائما فى حياة المرأة بدور «صخرة الخلاص» ، لأن التسامى العقلى الذى قد تقوم به المرأة حينما تلتجىء الى احتراف مهنة هو الذى يحميها فى هذه السن من تأثير كل صدمة بيولوجية . ولعل هذا هو السبب فى أن سن

اليـأس قد يكون فى حياة الكثيرات بمثابة فاتحة لعهد ذهبى مليىء بالنشاط والانتاج . وهنا قدتكتسب المرأة بعض الصفات الرجلية ، فنجدها تظهر الكثير من الوضوح ، والموضوعية ، والاعتدال فى أساليب تفكيرها ، كما قد تقترب فى سلوكها من « رجال الأعمـال » فتصبـح عاملة حازمة لبقـة ذات روح اجتماعية ... الخ ، وليس أدل على تزايد النشاط العقلى للمرأة فى هذه السـن ، من أن نسـاء كثيرات لم ينبغن فى مجال تخصصهن الا بعـد بلوغهن لسن السـتين . ولا شـك أن تفرغ المرأة للكثير من ضروب النشاط الاجتماعى فى هذه السن هو وليد انصرافها عن مشاغل الجنس وهموم البيت ، بعد أن زالت عنها تبعات النوع !

٤٣ — ولكن هل تنتهى مهمـة « الأمومة » ببلوغ المرأة لسن اليـأس ؟ أو بعبارة أخرى ، هل يصح أن نقول ان سن اليأس التى تزول فيها الفوارق بين الجنسين ، فتصبح حيـاة المرأة كحياة الرجل على حد سـواء ؟ يبدو لنا مرة أخرى أن « الأمومة » ليست مجـرد تعبير عن الأداء المبـاشر لوظيفة التناسـل ، وانما هى مبدأ اشـعاع يمتد تأثيره الى كل دوائر النشاط النسوى . وليس أدل على ذلك من أن الأبناء الذين كبروا واستقلوا عن أمهم ، لايلبثون أن يعودوا اليها بأبنائهم ، فتتسع دائرة الأسرة ، ويتضاعف سرور الأم بنعمة الأمومة . وعلى الرغم من أن علاقة الأم بأبنـائها المتزوجين وبنـاتها المتزوجات لا تخلو من صراع وتنـاقض عاطفى ، الا أن من

المؤكد أن الأم الطاعنة فى السن تصن نفسها ضد سأم الحياة وخلوها من الانفعالات والعواطف بأن « تحيا » تجارب أبنائها ، وأن تتقمص شخصياتهم ، وأن تجعل من انفعالاتهم وعواطفهم حالات وجدانية شخصية تعانيها فى صميم وجودها ، على حد تعبير فرويد [1] . والحق أن الأبناء هم الذين يكفلون للآباء الشباب الدائم ، ولولا البنون لما استطاع الآباء أن يتحملوا تبعات الزواج بما يترتب عليه من استسلام ضرورى . وكثيرا ما تتقمص الأم شخصية ابنتها حتى لتكاد تشاركها حب زوجها ! وعلى العكس من ذلك ، نرى أن الأم قد لا تحتمل فى سن اليأس أن ترى زوجة ابنها حاملا ، أو أن تعرف أنها سوف تنجب لابنها ولدا ! أما حينما تكون زوجة الابن عقيمة ، فان الأم قد تحقد عليها ، بل قد تتمنى لها الموت ، لأنها لم تستطع أن تهب لابنها نسلا ! ولعل من مظاهر الغيرة مثلا ما روته مارى بونابرت عن مدام ليفيڤر « Mme Lefevere » من أنها عزمت على قتل زوجة ابنها حينما علمت أنها كانت على وشك أن تضع مولودا من ابنها ! ولكن هذه كلها حالات مرضية شاذة ، وأما حينما تكون الأم ودودة فائضة الحب ، فانها قد توثق عرى صداقة حارة مع زوجة ابنها ، دون أن تدع للتنافس أو الغيرة سبيلا الى نفسها . حقا ان زوجة الابن قد تتخذ

---

(١) S. Ereud : « Totem and Taboo », In The Basic Writings of Sigmund Freud: New-York, Modern Library, 1938, pp. 817 - 820.

صورة المرأة الدخيلة التى تستلب الأم طفلها ، ولكنها قد تتسبب أيضا فى عودة الابن الى محبة والدته ، بعد أن يكون حبه لزوجته قد أصبح عاصما له من الوقوع تحت أسر حب الأم العارم ! وهكذا قد تكتسب الأم حب شخصين معا : حب ابنها الذى عاد اليها ، وحب زوجة ابنها التى قد أصبحت بمثابة ابنة جديدة تكن لوالدة زوجها ما تكن له من الحب والحنان .

ــ ومهما يكن من شيء ، فان انتهاء الوظيفة التناسلية لدى المرأة لا يعنى موت عاطفة الأمومة لديها ، لأن الأم حينما تستحيل الى « جدة » ، فانها تجد نفسها من جديد مدفوعة الى القيام بدور « الأم المساعدة » ، كما كانت تفعل أثناء طفولتها بالنسبة الى أمها . وهكذا نجد أن « الأمومة » هى تجربة حية خصبة تلازم المرأة طفلة ، ومراهقة ، وأما ، وجدة !

خاتمـــة

أما بعد فقد حاولنـا فى هذه العجالة القصيرة أن نلم بأهم مراحل النمـو النفسى الذى يختلف على شـخصية المرأة ، فاستطعنا أن نلمس من هذا العرض السريع أن السمات الخلقية التى تتصـف بها المرأة هى وليـدة البيئة والتربية . حقا ان للتكوين البيولوچى أهميته باعتباره الأسـاس الذى ستتند اليه معظم مقومات المرأة ، مثل السلبية والمازوشية والنرجسية، ولكننا لاحظنا أن معظم الفروق الكائنة بين الجنسين من حيث القـدرة العقلية والانتاج الفكرى انما ترجع الى عدم تكافؤ الفرص وحاجة المرأة الى الثقة فى نفسـها وفى المجتمع . وقد قادتنا دراسة التطور السيكولوچى لشخصية المرأة الى القول بأنه ليس ثمة « أنوثة محضة » ولا « ذكورة محضة » : اذ قد لاحظنا أن هناك عناصر ايجابية ، عدوانية ، ذكورية ، تدخل ضمن مقومات « الأنا » عند المرأة . وعلى الرغم من أننا قد جعلنا من « الأمومة » المركز الذى يوجه معظم دوافع المرأة ، فاننـا قد نبهنا فى أكثر من موضع الى أنه ليس ثمة « أمومة خالصـة » ، كما أنه ليس ثمة « أنوثة مطلقة » أو « ذكورة مطلقة » . وآية ذلك أن بعضا من العناصر الذكرية قد تدخل

فى صميم النشاط الصادر عن دافع الأمومة ؛ فضلا عن أنه قد لايكون ثمة موضع لوضع حد فاصل بين «الأم» و «العاهرة» ، ما دامت بعض العاهرات قد يتصفن ببعض صفات الأمومة . ولعل هذا هو السبب فى أننا حينما نحاول أن ندرس « سيكولوچية المرأة » ، فاننا لا نلبث أن نتحقق من أننا مضطرون الى دراسة « سيكولوچية النساء » ، اذ أن هذا المفهوم المطلق الذى نسميه باسم « المرأة » يكاد يكون معنى مجردا قلما نلتقى به فى صميم علاقاتنا بشتى الشخصيات النسوية . أما تلك الفروق الحاسمة التى اعتدنا أن نقيمها بين « الرجل » و « المرأة » ، فهى كذلك تعميمات مطلقة نلتجىء اليها لتسهيل البحث ، ولكنها قلما تنطبق على الأفراد الذين نلتقى بهم فى حياتنا العادية . واذا كانت هذه هى حقيقة الصلة بين « الذكورة » و « الأنوثة » ، فما أحرانا بأن نبتسم حينما نلتقى بأولئك الذين يفخرون برجولتهم ، متناسين أن هناك « أنثى » تكمن فى قرارة نفوسهم ! «حقا ان هؤلاء قد لاتكون كل بيوتهم مصنوعة من الزجاج ، ولكنهم ينسون أن نوافذ بيوتهم على الأقل مصنوعة من الزجاج ، فما يليق بهم أن يقذفوا الآخرين بالحجارة ! » . وما دامت الرجولة الكاملة تكاد تكون معدومة (مثلها كمثل الأنوثة الكاملة) فليس هناك معنى لأن تتهم الآخرين بنقص الرجولة . فلنترك اذن لأولئك الواهمين تلك الأسطورة الرائعة ــ أسطورة الرجولة الكاملة ــ ولنقنع نحن بأن نكون « انسانيين » : ننظر الى الرجل على أنه

« انسان » قبل أن يكون ذكرا ، وننظر الى المرأة على أنها « انسان » قبل أن تكون « أنثى » ، ونعتبر أن جوهر الانسانية واحد فى كل منهما ، مهما كان من أمر تلك الفروق البيولوجية التى اقتضتها طبيعة تقسيم العمل بينهما .

بيد أن هذه « النظرة الانسانية » التى ندعو اليها لا تعنى أن تتناسى المرأة وظيفتها الأصلية ، لكى تنافس الرجل فى ميادين قد لا تكون هى بحاجة الى خوضها ، وانما يجب أن تتذكر دائما أن هدف المرأة الأسمى هو أن تكون « أما » ، وأن تعمل على العناية بطفلها على الوجه الأكمل . حقا ان الظروف قد تضطر المرأة الى العمل على عدم المساواة مع الرجل ، خصوصا قبل الزواج حينما يكون عليها أن تكسب عيشها حتى لا تحيا عالة على المجتمع ؛ ولكن من المؤكد أن المرأة لا تمانع فى العودة الى وظيفتها الأصلية حينما تتاح لها الفرصة لأن تساهم فى تكوين جيل سليم متزن ناضج . وأما حينما يضن عليها المجتمع بمثل هذه الفرصة ، فقد لا يكون من حرج عليها ان هى اتجهت الى ميادين العمل النسوى حيث هناك متسع لارضاء حاجتها الى الأمومة بطريقة روحية سامية . وما من أحد يمانع اليوم فى أن تتمتع المرأة بسائر الحقوق التى يتمتع بها الرجل فى شتى ميادين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية . ولكن هذه المساواة الاجتماعية بين الرجل والمرأة أمام القانون وفى الحياة العامة ، لاينبغى فى نظرنا أن تتم على حساب الأسرة . واذا كان البعض قد أصبح ينظر

الى « الأمومة » على أنهـا مجرد « وظيفة اجتماعية » ، بحيث يكون على الدولة أن تنهض بعبء تربيـة الأطفال وتنشـئة المراهقين ، كما هو الحال مثلا فى بعض البلاد الاشتراكية ، فان هذه النظرة فى رأينا قد تؤدى الى القضاء نهائيا على «الأمومة» الحقيقية التى فيها ينعم الطفل بحنان الأم ورعايتها ، خصوصا فى السنوات الثلاث الأولى من حيـاة الطفولة . وليس يكفى لحل مشاكل الأسرة أن نحرر المرأة اقتصاديا ، وأن نسمح لها بأن تساهم مع الرجل فى حمل أعباء الأسرة المالية ، بل يجب أن تكفل لها العناية بأسرتها دون التضحية بواجبات «الأمومة» التى تستلزم الاستقرار العائلى ، والارتباط المباشر بالطفل ، والعمل على تقديم الغذاء الروحى للأبناء صغارا وكبارا .

وهنا نجد أنفسـنا بازاء مشكلة عسيرة : فقد أصبح من واجب المربين أن يفكروا جديا فى طريقة تعليم البنت ، ومدى صلاحية التعليم المشترك ، ونوع الدراسة التى يمكن أن تحقق لها تكامل الشخصية . وليس من السهل بطبيعة الحال أن نقطع برأى حاسم فى هذه المشكلة المعقدة ، ولكننا نعتقد أنه لا بد لنـا من أن نذكر دائما أن عملية تكامل الشخصية لدى المرأة عملية عسـيرة معقدة ، فضـلا عن أن دور المرأة فى الحيـاة الاجتماعية الحديثة قد أصبح مزدوجا : اذ أصبح من الضرورى أن تعد المرأة للأمومة بما يترتب عليها من مطالب وتبعـات ، وللحياة الحرة المستقلة بما تقتضيه من واجبات واستعدادات . ولما كان عامل الزمن لدى الجنسين مختلفا ، فان التعليم المشترك

قد لا يكون فى مصلحة الجنسين ، اللهم الا فى الفترات الأولى من الحياة الدراسية . ولكن اذا كان من الحق أن الاختلاط ضار ومستحيل ، اذا أريد له أن يكون ظاهرة عامة تستمر طوال مراحل التعليم ، فان هذا لا يعنى أن يتم الفصل بين الجنسين منذ البداية . وليس من شك فى أن ضرورة اعداد النشء لمواجهة حقائق الحياة ومستلزمات العلاقات الجمعية هى التى تدعونا الى أن نفكر جديا فى توفير أسباب التضامن والتآزر بين الجنسين . ولا نرانا فى حاجة الى القول بأن جانبا كبيرا من مشاكل الحياة الاجتماعية انما يتولد عن خوف البنت من الجنس الآخر أو عجزها عن التعاون معه بسبب شعورها بالنقص . وحينما يكون الفرد قد نشأ فى جو من العزلة والانعكاف ، بعيدا عن كل صلة أو رابطة بالجنس الآخر ، فانه قد يلقى الكثير من الصعوبات فيما بعد حينما تضطره طبيعة الحياة الاجتماعية الى تكوين علاقات مع الجنس الآخر ، أو العمل فى مجتمع مختلط يضم رجالا ونساء . وقد دلتنا التجارب على أن كثيرا من مشاكل الحياة الزوجية ، انما ترتد فى نهاية الأمر الى هذا النوع من « التربية الانفصالية » التى فيها ينشأ الولد (أو البنت) فى شبه عزلة جنسية ، دون أن تتاح له فرصة التعارف أو الاختلاط بالجنس الآخر . وليس من شك فى أن هناك مهنا كثيرة تقتضى الالمام التام بسيكولوجية الجنسين ، ولكن لا عن طريق الكتب أو الدراسات المجردة ، بل عن طريق الصلات الشخصية والتجارب الحية . وكيف

يتسنى للطبيب أو المدرس أو رجل الدين أن يتعامل مع الجنسين ، اذا لم يكن قد اختبر بنفسه تجربة « الاختلاط » ، فاستطاع أن يعرف من خلالها الى أى حد تختلف سيكولوچية المرأة عن سيكولوچية الرجل ؟ ولكننا نعود فنقول ان سيكولوچية المرأة لا تعنى وصف ذلك الموجود المجرد الذى أطلق عليه البعض اسم «الأنثى» الخالدة ، كما أن سيكولوچية الرجل لا تعنى وصف ذلك الموجود المجرد الذى اعتدنا أن نسميه باسم « الذكر » ، وانما يجب أن نحذر القارىء من الانسياق لتلك التجريدات الجوفاء التى لا تؤدى الا الى تزايد الصراع بين الجنسين ، وعجز كل من الرجل والمرأة عن تحقيق « التكامل » الذى يضمن لهما أسباب السعادة .

انهم يقولون ان الرجل هو « القوة » ، والمرأة هى « الجمال » ، ولكن أليس للقوة جمالها ، كما أن للجمال قوته ؟ وهم يدللون على امتياز الرجل بقولهم ان الله خلق آدم أولا ، ثم خلق حواء بعد ذلك من ضلعه ، ولكن أليس فى وسعنا أن نقول مع القديس أوغسطين : « لو أن الله أراد أن تكون المرأة حاكمة على الرجل لخلقها من رأس آدم ، ولو أنه أراد أن تكون أسيرة للرجل لخلقها من رجله ؛ ولكنه خلقها من ضلعه ، لأنه أراد أن يجعل منها شريكة للرجل مساوية له . » . أما فيما يتعلق بقصة آدم وحواء وطردهما من الجنة ، فربما كان من الطريف أن نستبدل بها قصة أخرى جاءت فى احدى الأساطير الهندية القديمة . وهنا تقول الرواية انه حينما خلق براهمة

الكون ، فانه أودع الرجل والمرأة فى جزيرة نائية ساحرة الجمال . وحينما اختار لهما براهمه تلك البقعة الفريدة خاطبهما قائلا : « فلتجمع بينكما رابطة المحبة ، لأن ارادتى قد شاءت أن يكون الحب الصادق أساسا للزواج » وهكذا توثقت رابطة الحب بين آدم وحواء ، ثم لم يلبث براهمه أن عقد الزواج بينهما قائلا لهما : « امكثا ههنا ولا تغادرا هذه الجزيرة ! » بيد أن آدم ـ ذلك المخلوق المتنقل الولوع بالأسفار ـ سرعان ما مضى الى حواء يقول لها : « اننى أريد أن أمضى الى بعيد » فتركته حواء يستطلع أنحاء الجزيرة ، الى أن قادته قدماه نحو أقصى الشمال ، حيث أغراه سراب خداع أوهمه بوجود جبال شامخة ووديان جميلة مغطاة بالجليد الأبض . وعاد آدم الى زوجه يقول لها : « ان البلاد البعيدة لهى أجمل بكثير من البقعة التى نسكنها ، فهيا بنا الى هناك . » ولكن حواء ـ ذلك المخلوق المستقر الولوع بالثبات ـ لم تلبث أن أجابته بقولها : « فلنمكث ههنا لأن لدينا كل ما نرغب فيه ، وما بنا حاجة الى أن نهاجر بعيدا . » وعاد آدم يدعوها الى الهجرة ، فاستجابت له أخيرا ، ومضى الاثنان الى تلك المنطقة البعيدة الضيقة من الأرض ، حيث حملها الرجل على ظهره ومضى بها . غير أنهما سرعان ما سمعا صوت انفجار شديد خلفهما ، فلما نظر الرجل الى الوراء وجد أن الأرض قد انهارت وسقطت فى أعماق اليم . واختفى السراب ، فلم يكن ثمة غير

صخور ورمال ! وعندئذ تعالى صوت براهمه يلعنهما وينهى اليهما حكمه عليهمـــا بالبقاء فى الجحيم ! وهنـــا تكلم الرجل فقال : « فلتحل اللعنة بى وحدى ، ولكن ليس بزوجى ، فانها ليست خطيئتها بل خطيئتى » . وعندئذ أجاب براهمه : « اننى سوف أنقذها هى ، وأما أنت فلن يكون لك خلاص » ! وهنا فاض قلب المرأة حبا فقالت فى حنان وخوف : « اذا كنت لن تعفو عنه ، فلا تعف عنى أنا أيضـــا ! ـــ اننى لا أريد أن أحيا بدونه ، اننى أحبه ! » . وعندئذ ارتفع صـــوت براهمه الاله قائلا : « لقد عفوت عنكما معا ، وســـوف أرعاكما وأرعى أبناءكما من بعدكما » !

تلك هى أسطورة الرجل والمرأة على نحو ما تصورها خيال البشر ! ولكننا قلنا فى بداية هذا الكتيب اننـــا نريد أن نميط اللثام عن لغز « المرأة » الخالد ، فكيف نهيب فى خاتمة المطاف بمثل هذه الأساطير المليئة بالشعر والسر والخيال ؟! ولكننا نعود فنذكر القـــارىء بأن « الحب » و « الأمومة » هما الكلمتان الأخيرتان فى « لغز » المرأة ، ولم تخل أســـطورة بشرية من التعبير عن هذين المعنيين بأسلوب جميل قد لا ترقى اليه أحيانا أعمق التحليلات العلمية ! ـــ وان البعض ليقول : « ان المرأة هى المخلوق الذى لايستطيع المرء أن يحيا بدونه ، ولايستطيع فى الوقت نفسه أن يحيا معه ! » وتبعا لذلك فان السعادة فى الحب هى فى نظرهم أشـــبه ما تكون بالدائرة المربعة ! ولكن

دراستنا لسيكولوچية المرأة قد علمتنا أن السعادة ليست منحة ، وانما هى ثمرة لخبرة طويلة وكسب متواصل . وحينما يعرف الرجل كيف يعامل زوجه على أنها زهرة جميلة رائعة ، فانها لن تلبث أن تملأ جو حياته بالعطر والبهجة والسرور !
فلتحاول ذلك يا صديقى القارىء ، وسأحاول معك !

فهـــرس

صفحة

مكتبة الثقافة السيكولوجية

باشراف الدكتور عبد المنعم عبد العزيز المليجى

- **سيكولوجية المرأة** ـ للدكتور زكريا ابراهيم
- **الزواج والاستقرار النفسى** ـ للدكتور زكريا ابراهيم
- **التعبير الموسيقى** ـ للدكتور فؤاد زكريا
- **الكابوس** ـ للأستاذ نجيب يوسف بدوى
- **الاحتــلام** ـ للأستاذ نجيب يوسف بدوى